

أضواء على شوبنهاور

معرض، أحمد

أضواء على شوبنهاور

نيوبوك للنشر والتوزيع

14 × 21 سم

تدمك: 9789779960098

رقم الإيداع: 2019/15446

1 - القصص العربية

2 - العنوان

دار النشر: نيوبوك للنشر والتوزيع

عنوان الكتاب: أضواء على شوبنهاور

الكاتب: أحمد معوض

رقم الطبعة: الأولى

تاريخ الطبعة: 2020

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر



نيو بوك للنشر والتوزيع

ويحظر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملاً أو جزئياً، أو تسجيله على أشرطة

كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة

نيوبوك للنشر والتوزيع

6 عمارات الدفاع الوطنى - حدائق القبة - القاهرة

تليفون: 01092673274

newbooknb@gmail.com

أحمد معوض

أضواء على شوبنهاور



المحتويات

هذا الكتاب ٧

المجلد الأول: من المهد إلى اللحد

أيام شوبنهاور ٣١

حياة شوبنهاور ٩١

قصة حياة شوبنهاور ٥٢

من شوبنهاور إلى ف. أ. بروكهاوز ٧٤

من شوبنهاور إلى ف. أ. بروكهاوز ٣٦

فيلهلم يوردان ٣٧

فيلهلم جفيز يلتقى بشوبنهاور ٩٧

وصية شوبنهاور ٣٠١

المجلد الثاني: فلسفة شوبنهاور

أعمال شوبنهاور ٣١١

٧١١	العالم تخيل
٣٢١	العالم إرادة
١٤١	العالم شر
٣٥١	حكمة الحياة
٩٦١	حكمة الموت

المجلد الثالث: نحن وشوبنهاور

٧٧١	إنسانية شوبنهاور
٩٧١	شوبنهاور يتحدث عن نفسه
٣٨١	النقد
٩٨١	شوبنهاور وكانت
٣٩١	مذهب شوبنهاور
١١٢	هذا الكاتب
٣١٢	كتب الدكتور أحمد معوض



هذا الكتاب

يحتفل العالم فى هذه الأيام بمرور مائة عام على وفاة الفيلسوف شوبنهاور، فيشارك الفلاسفة ورجال الفكر جميعًا - سواء منهم من كان فى ألمانيا أو فى غيرها من دول العالم - فى ذكره والإفاضة عن الأثر الذى خلفه فى الفلسفة من بعده.

وشوبنهاور فيلسوف شهد الناس - وفى مقدمتهم أعز الناس إليه - ينصرفون عنه، ثم شهد - فى أواخر حياته - الناس يقبلون عليه ويضعونه فى المكانة اللائقة به ويكرمونه ويقدرونه حق قدره. ولم يغير هذا الإدبار أو ذلك الإقبال شيئًا من نظرتة إلى الحياة، ولم ينزع عن خياله ما عاناه منذ صباه من تصرفات كادت تودى به كمفكر وتنتقل به إلى عالم آخر بعيد عن عالم الفكر والتأمل.

وراح الصراع الذى مر به فى حياته - وخاصة الحلقات الأولى منها - يتحكم فيما يكتب ويشكل كتاباته، بل يضع أعماله فى القوالب الأخيرة التى ظهرت فيها للناس.

ولا أريد أن أتعرض فى هذه الكلمة للعالم الذى عاش فيه شوبنهاور، والأيام التى مر بها، والأعمال التى خلفها لنا - حتى لا يفقد القارئ لذة متابعة الأحداث، وتتبع أفكاره الفلسفية.



وطبيعى أن أعتمد فى كل ما كتبته هنا على أعمال الفيلسوف العظيم ذاته، وكلها فى تناول العارف باللغة الألمانية. كما اعتمدت على طائفة من الكتب التى تحدثت عنه - سواء ما كتب منها باللغة الألمانية أو باللغات العالمية الأخرى. وعمدت فى كل ذلك إلى النقل من المصادر الأصلية الموثوق فيها.

كذلك عمدت إلى التبسيط فى عرض أفكار شوبنهاور الفلسفية محاولاً الابتعاد - قدر الإمكان عن الألفاظ الهيولية التى يستعملها المتحدثون فى الفلسفة، إيماناً منى بأن تبسيط الفلسفة - رغم ما فى ذلك من جهد مضمّن شاقٍ - يجتذب الكثيرين، ممن يخشون مجرد الاقتراب من الكتب التى تتصف بالفلسفية.

وفى سبيل ذلك عمدت إلى إجراء تجربة عملية، إذ جمعت ثلة ممن اختلفت ثقافتهم فى درجتها ونوعها، وجعلت أقرأ عليهم أصول الكتاب قبل إرسالها إلى المطبعة. ولكم كان سرورى كبيراً عندما ألفتهم جميعاً يتبعون ما كتبت فى شغف. وتأكد لى أن ما جاء فى هذا الكتاب واضح كل الوضوح لدى فتية ممن لم يتموا المرحلة الإعدادية من التعليم، ولدى الشباب فى المرحلة الثانوية من التعليم. واعتبره أصدقائى من رجال الفكر وزملائى من الخريجين وطلبة الجامعات والمعاهد العليا، نصراً كبيراً للفكرة التى أنادى بها من ضرورة تبسيط الفلسفة.

والآن، أقدم هذا الكتاب وكلّى ثقة فى أنه سيشق طريقه فى نجاح - على الرغم من أنه يعرض لفيلسوف متشائم.. لم يجد السبيل إلى النجاح إلا فى أواخر أيامه، قبيل أن ينسدل الستار على مسرحية حياته.



وأود - فى ختام هذه الكلمة - أن أشكر كل من عاوننى على إخراج هذا الكتاب، وفى مقدمتهم زوجتى التى كان لها فضل كبير فى إعداد الكتاب، إذ سهرت الليالى تعمل معى بل تشاركنى العمل فى كل المراحل التى مر بها الكتاب. ولن أجد للإعراب عن تقديرى لجهودها إلا أن أهدي إليها كتابى عن «شوبنهاور» - ولو أنه كان عدو النساء الأول.

حداائق القبة فى ٢٥ أكتوبر ١٩٦٠

المجلد الأول
من المهد إلى اللحد



أيام شوبنهاور

لماذا سادت في أوروبا في النصف الأول من القرن التاسع عشر
روح التشاؤم؟

ولماذا تملك النفوس ذلك اليأس القاتل؟

ولماذا ارتفعت أصوات اعتبرت ممثلة لذلك العصر؟

ولماذا ارتفعت أصوات شعراء متشائمين: بيرون Byron في
إنجلترا، ودي موسيه De Musset في فرنسا، وهايه Heine في ألمانيا
وليوباردى Leopardi في إيطاليا، وبوشكين Pushkin وليرمونتوف
Lermontof في روسيا؟

ولماذا ارتفعت أصوات مجموعة الموسيقيين المتشائمين
أمثال شوبيرت Schubert وشومان Schumann وشوبان Chopin،
بل وبيتهوفن Beethoven الذي صار متشائمًا في أواخر أيامه وإن
حاول أن يقنع نفسه بأنه متفائل؟

بل قبل هؤلاء جميعًا؛ لماذا ارتفع صوت ذلك الفيلسوف العميق
في تشاؤمه.. آرتور شوبنهاور؟

لقد ظهرت مجموعته الأحزان الكبرى «العالم - إرادة وتخيّل»



فى سنة ١٨١٨، وكان ذلك فى عصر الحلف «المقدس». وانتهت معركة واترلو Waterloo، وماتت الثورة. وأخذ «ابن الثورة» يحتضر فوق صخرة فى وسط بحر بعيد، فجاء مرجع بعض تأليه الإرادة عند شوبنهاور من ذلك الطيف الحى الرائع - الذى يمثل الإرادة - وقد تجسد فى بونا برب Bonaparte ذلك الكورسيكى الصغير؛ كما جاء بعض يأسه من الحياة من بعد جزيرة سانت هيلانه St. Helena إذ هزمت الإرادة أخيراً، وبقي الموت المظلم هو المنتصر الوحيد فى جميع الحروب. وأعيدت أسرة بوربون Bourbons إلى العرش، وعاد البارونات Baron الإقطاعيون يطالبون بأراضهم؛ وتبنت مثالية الكزنذر Alexander المسالمة، عصبة تعمل على وقف التقدم فى كل مكان. وانتهى بذلك العصر الثورى المجيد حتى أن جيته Goethe قال «أحمد الله على أنى لست صغيراً فى عالم منته تماماً كهذا».

ورقدت أوروبا كلها فى خضوع واستكانة. وهلك ملايين الرجال الأقوياء، وأهملت ملايين الأفدنة من الأراضى أو تركت بورا. وكان لا بد من أن تبدأ الحياة مرة أخرى فى كل مكان من القارة الأوروبية من القاع حتى يمكن أن تسترد فى ببطء وفى جهد شىء من ذلك الاقتصاد الذى يكفل الحضارة بعد أن كانت الحرب قد ابتلغته كله. وعندما جاب شوبنهاور أنحاء فرنسا والنمسا فى سنة ١٨٠٤، أدهشته فوضى القرى وقذارتها وفقير الفلاحين المدقع واضطراب المدن وشقاءها - ذلك أن مرور جيوش نابليون والجيوش المعادية لنابليون قد تركت آثار الدمار على وجه كل بلد فى أوروبا.

كانت موسكو رماداً. أما فى إنجلترا المزهوة بانتصارها فى هذا الصراع، فقد أفلس الفلاحون فيها بسبب انخفاض سعر القمح، وأخذ



عمال الصناعة يتذوقون أهوال خطط المصانع المتفككة التى تعمل دون رقابة. وزاد تسريح الجيوش من عدد العاطلين. وكتب توماس كارليل Thomas Carlyle يقول: «سمعت أبى يقول إنه لاحظ أنه عندما ارتفع ثمن الأربعة عشر رطلاً من طحين الشوفان فبلغ عشرة شلنات، كان العمال يذهبون فرادى إلى جدول ماء فيشربون بدلاً من أن يأكلوا، ولا يهتم كل منهم إلا بأن يخفى شقاءه عن الآخرين».

ولم تبد الحياة قط من قبل تافهة وغير ذى معنى هكذا. نعم، ماتت الثورة وبموتها بدت الحياة وكأنها الروح فاضت بها نفس أوروبا؛ وتقهقرت الجنة الجديدة، جنة المدينة الفاضلة، التى حل رواؤها محل شفق الآلهة؛ وأصبحت مستقبلاً مظلماً لا تستطيع أن تراه إلا العيون الفتية، أما العيون المعمرة فقد طال متابعتها السراب، وانصرفت عنه الآن بعد أن اعتبرته سخرية من آمال البشر؛ فالصغار وحدهم هم الذين يستطيعون أن يعيشوا فى المستقبل، أما الشيوخ فلا يستطيعون أن يعيشوا إلا فى الماضى، وأغلب الناس كانوا مضطرين لأن يعيشوا فى الحاضر - وليس الحاضر إلا خراباً.

لكم حارب آلاف الأبطال والمؤمنون فى سبيل الثورة، ولكم اتجهت قلوب الشباب فى كل مكان فى أنحاء أوروبا نحو الجمهورية الفتية، وعاشت فى ضوئها وعلى الأمل فيها - حتى أن بيتوفن مزق إهداء سيمفونيته البطولية إلى الرجل الذى لم يعد ابن الثورة بل أصبح صهر الرجعية.

ولكم حارب الكثيرون - حتى فى ذلك الوقت - من أجل الأمل الكبير، وآمنوا - بشئ من الشك العاطفى - حتى النهاية! والآن



حلت النهاية نفسها: واطرلو وسانت هيلانه وفيينا؛ وعلا عرش فرنسا الطريحة أحد أفراد أسرة بوربون - لم يتعلم شيئاً ولم ينس شيئاً.

كان كل ذلك هو السجل المجيد لجيل كان له من الأمانى والجهود ما لم يعرف تاريخ البشرية لها مثيلاً من قبل. ولكم كانت هذه المأساة مهزلة لأولئك الذين اختلطت ضحكاتهم مريرة بالدموع !

وحاول الكثير من الفقراء خلال تلك الأيام إبعاد الخيالات والأوهام عن نفوسهم، وتخليص ذاتهم من الشقاء الذى حل بها؛ وذلك بالاتجاه وجهة دينية. ولكن نسبة كبيرة من أهل الطبقة العليا اهتزت نفوسهم هزاً عنيفاً، ففقدوا إيمانهم؛ وخاصة عندما ألقوا ببصرهم من حولهم، فإذا بهم لا يرون إلا عالمًا خرباً؛ ولم يجدوا ما يخفف من أثر ذلك من احتمال مشاهدتهم حياة أوسع، يمكن أن يوجد فى جمالها وعدالتها النهائية حل لهذه الشرور. وكان من الصعب على البعض أن يعتقد أن هذه الدنيا - التى رآها الناس فى سنة ١٨١٨ - كانت بين يدى إله ذكى خير، فانتصر الشيطان ويئس كل عالم. وإذا كان فولتير Voltaire قد بذر بذور الدوامه، فقد كان على شوبنهاور أن يحصد هذه البذور.

وكانت هذه أول مرة أثيرت فيها فى إصرار تام مشكلة الشر بهذه القوة لتواجه كلاً من الفلسفة والعقيدة. وارتفعت علامات الاستفهام صامته من كل قبر عسكرى ابتداء من بولونيا Boulogne حتى موسكو Moscow والأهرام نحو النجوم غير العابئة.

يا إلهى ! كم يطول هذا؟ ولماذا؟ هل كانت هذه الكارثة التى تكاد تكون عالمية انتقاماً من عصر الإلحاد المتشع بزى العقل من لدن



إله عادل؟ أكانت دعوة للعقل النادم لينحنى أمام الفضائل القديمة:
فضائل الإيمان والأمل والإحسان؟

على هذا النحو فكر شليجل Schlegel ونوفاليس Novalis
وشاتوبريان Chateaubriand ودى موسيه وسوتى Southey
ووردزورث Wordsworth وجوجل Gogol! ومن ثم أقبلوا على
العقيدة القديمة، فكان مثلهم فى ذلك كمثّل الصبى المدلل تسعده
العودة لبيته بعد الضلال. نعم، هذا ما دفعهم للرجوع إلى حظيرة
الإيمان.

ولم ينهج الجميع هذا المنهج، إذ أن عددًا كبيرًا غيرهم فكر فى
الأمر بطريقة أخرى؛ إذ هبّ له أن فوضى أوروبا إنما هى انعكاس
لفوضى الكون؛ وأنه ليس هناك نظام إلهى قط، ولا أمل فى السماء.
وأن الله - إذا كان هناك إله - إنما هو أعمى، وأن الشريخيم على وجه
الأرض. وعلى هذا النحو فكر كل من بايرون وهابنه وليرمو نتوف
وليوباردى وفيلسوفنا شوبنهاور.



حياة شوبنهاور

اعتمدنا فى الحديث عن حياة شوبنهاور على ما كتبه الفيلسوف ذاته عن سيرته، وتتمثل فى:

- مجموعة الرسائل المتبادلة بينه وبين أمه من جهة، وبينه وبين أصدقائه وعظماء عصره من جهة أخرى.

- الرسالة التى بعث بها إلى عميد كلية الفلسفة فى جامعة فيينا فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٨١٣.

- أحداث حياته كما سجلها فى Curriculum Vitae ضمن رسالته المؤرخة فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨١٩ إلى عميد كلية الفلسفة فى جامعة برلين.

- موضوع Biographische الذى وضع بنفسه فيه مخططاً لسيرته Skizze وذلك فى ٩ أبريل سنة ١٨٥١ ليستعين به يوحنا إدوارد إردمان Joh. Ed.Erdmann فى كتابه الذى وضعه عن تاريخ الفلسفة تحت عنوان Versuche einer wissenschaftlichen Darstellung Geschichte der neueren philosophie «ومحاولة علمية لتوضيح تاريخ الفلسفة الحديثة».



- المذكرات التى كتبها عن نفسه Notizen über mein Leben «مذكرات عن حياتي» وقدمها فى ٢٨ مايو سنة ١٩٥١ لتكون تحت تصرف هيئة تحرير دائرة ماير للمعارف Meyers Konversationslexikon.

وثمة عمل يقال إن شوبنهاور كتبه عن حياته تحت اسم Eis Exutov على غرار ما كتبه مارك أوريل Marc Aurèle تحت نفس العنوان؛ إلا أن هذا العمل لم نر منه اثرًا.

كذلك اعتمدنا على الأعمال والحكايات التى كتبها عنه أصدقاؤه ومعاصروه، وفى مقدمة هؤلاء الكاتب الروائى فيلهلم يوردان Wilhelm Jordan وصديقه الوفى فيلهلم جفيز Wilhelm Gwin-ner وصديقه فراونشتيت J.Frauenstädt الذى ترك شوبنهاور له كل مخطوطاته العلمية وكل أعماله وكل مخطوطات «كانت»، وترك له جميع حقوق نشرها بعد أن تخلى الناشرون عن هذه الحقوق رسميًا فى عقودهم.

وقد نشر جفيز عمله الأول عن شوبنهاور فى ليبتيسيج فى سنة ١٨٦٢ تحت عنوان:

Arthur Schopenhauer - aus persönlichen Umgang dargestellt.

آرتور شوبنهاور - موصوفًا من الاتصالات الشخصية. ثم نشر بعد ذلك عمله الثانى عنه فى برلين فى سنة ١٨٦٣ تحت عنوان:

Arthur Schopenhauer - Von ihm - Ueber ihm. Ein Wort der Verteidigung von Ernst Otto Linder und Memorabilien, Briefe und Nachlassstücke von Julius Frauenstadt



آرتور شوبنهاور - منه - عنه . كلمة دفاع عنه من أرنست أوتوليندر ،
ذكرياته وخطاباته ومخلفاته بقلم يوليوس فراونشتيت .
وفى ١٨٦٤ نشر يوليوس فراونشتيت فى ليتسيج ما خرج به من
مخطوطاته تحت عنوان :

Aus Arthur Schopenhauer handschriftem Nachlass.

Abhandlungen, Anmerkungen, Aphorismen und Frag-
mente.

«من المخطوطات التى خلفها آرتور شوبنهاور . رسائل وتعليقات
وأقوال وشذرات» .

ونشر يوليوس فراونشتيت أيضًا مجموعة أعمال شوبنهاور
Arthur Shopenhauers samtliche Werke. وقدم لها بكلمة عن
«صورة حياة» شوبنهاور Lebensbild وقد رجعنا إلى الطبعة الثانية
منها المنشورة فى ليتسيج فى سنة ١٩٢٢ .

ومن الكتب التى رجعنا إليها أيضًا، والتى كتبها معاصروه - ذلك
الكتاب الذى وضعه جريزباخ E.Griesbach ونشره فى برلين سنة
١٨٦٧ تحت عنوان Schopenhauer - Geschichte seines Lebens
«شوبنهاور، قصة حياته» . وقد نشر جريزباخ فى سنة ١٩٠٥ كتابه
الثانى عن شوبنهاور الذى طبعه فى برلين أيضًا تحت عنوان :

Schopenhauer - Neue Beitrage zur Geschichte seines Leben

- «شوبنهاور - فاضل جديد من قصة حياته» .

وجاء فيشر فأخرج كتابًا شاملًا عن «حياة شوبنهاور وأعماله



وتعاليمه» shopenhauers Leben, Werke und Lehre وصدرت الطبعة الأولى منه فى ١٨٩٣، إلا إنى لم أعثر إلا على الطبعة الرابعة التى صدرت فى هايدلبرج فى سنة ١٩٣٤ ومذيلة بكلمة من هـ. جلوكنر H. Glockner

وقد نشر أرتور هيشر A. Hübscher بالاشتراك مع ج. جبهارت Der Briefwechsel Arthur Schopenhauers - G. Gebhardt الخطابات المتبادلة مع أرتور شوبنهاور ضمن مجموعة أعمال شوبنهاور Arthur Schopenhauer samtliche werke التى أصدرها ب. دويسن P. Deussen فى ثلاثة مجلدات: الأول منه نشره ج. جبهارت G. Gebhardt فى مينشين فى سنة ١٩٢٩. والمجلدين الثانى والثالث لأوتوهيشر نفسه، وطبعت فى مينشين فى سنتى ١٩٣٣ و١٩٣٨.

وفى سنة ١٩٣٣ صدر فى هايدلبرج كتاب هيشر «محادثات أرتور شوبنهاور» Arthur Schopenhauers Gespräche، وذلك فى الكتاب العشرين لجمعية شوبنهاور Schopenhauer Gesellschaft.

وفى سنة ١٩٣٧ نشر هيشر أيضًا «صورة حياة» Lebensbild ضمن مجموعة أعمال Arthur Schopenhauers samtliche Werke شوبنهاور التى نشرها هيشر بنفسه.

وفى سنة ١٩٣٧ صدر كتاب لشneider W. Schneider عن شوبنهاور Schopenhauer.

ولم أر تحليلًا لشوبنهاور وفلسفته فى الوضوح والبساطة التى كتب بها ويل ديورانت Will Durant الفصل الذى اختص به



الفيلسوف الألماني الكبير في عمله الخالد «قصة الفلسفة» The Story of philosophy عن حياة وآراء كبار الفلاسفة. وقد اعتمدت على طبعة ١٩٥٣ مما كتبه ديورانت في كثير من أبواب المجلد الثاني من هذا الكتاب.

ولم أجد في المكتبة العربية عن هذا الفيلسوف إلا كتاباً واحداً نشره الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى في أواسط سنة ١٩٤٢، وطبعه للمرة الثانية في سنة ١٩٤٥ وجعل عنوانه اسم الفيلسوف مجرداً «شوبنهاور». وذلك ضمن سلسلة الفلاسفة من مجموعته «خلاصة الفكر الأوروبي». وقد عرض الدكتور بدوى في كتابه آراء الفيلسوف بطريقة غير تلك التي يراها القارئ في هذا الكتاب مما يجعلنى أوصى القارئ بالاطلاع أيضاً على كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوى.



قصة حياة شوبنهاور

نشأ آرتور شوبنهاور Arthur Schopenhauer فى مدينة دانتسيج Dantzig حيث ولد فيها فى اليوم الثانى والعشرين من شهر فبراير لسنة ١٧٨٨ م. وكاد أن يولد إنجليزياً لولا أن عادت أمه إلى موطنها قبيل مولده.

وكان أبوه هاينريش فلوريس Heinrich Floris Schopenhauer شوبنهاور تاجراً ثرياً ومستشاراً بالبلاط الملكى البولندى، وإن كان لم يسمع قط لأحد بأن يناديه بهذه الصفة، إذ تميز باستقلال الشخصية وحب الحرية المتأصل فى نفسه. وكان الأب رجلاً غنياً شديد القسوة غليظ القلب، إلا أنه لم تكن تشوبه شائبة البتة بل اتصف بالاستقامة والإيمان القوى. وكانت له عدة مواهب رائعة فى النواحي التجارية.

أما أمه فكانت تسمى عند مولدها يوحنا هنريت تروزينر Johanna Henriette Trosiener وكان أبوها قاضياً فى مدينة دانتسيج، وقد تم زواجهما من هاينريش فلوريس شوبنهاور فى سنة ١٧٥٨. وورزق الزوجان بطفلهما الأول آرتور فى العام الثالث من زواجهما؛ وبعد عشر سنين أنجبا آديل أختاً لآرتور، وبقي لهما هذا الثنائى من الأطفال فحسب.

ولم تكن الأم سعيدة فى زواجها إذ كان زوجها - على الرغم من



كثرة رحلاته ينهمك فى تجارته ويكرس نفسه لها مبتعداً عن المجتمع الذى كانت هى ترنو إليه وترى أنها خلقت له. ودخلت سجل التاريخ بفضل ذلك العدد الضخم من مؤلفاته الأدبية التى اشتهرت بها، وخاصة فى فن القصة الطويلة، حيث ارتفعت إلى الصف الأول من كتاب عصرها، وإذا كانت فى حياتها الخاصة تشبه زوجها فى كونها حادة المزاج.

ويقرر شوبنهاور فى كتاباته عن نفسه أنه ورث الشخصية والإرادة عن أبيه، وورث العقل عن أمه.

ويقول إنه يدين لأبيه بالكثير مما تعجز عن إحصائه الكلمات؛ فقد اختار والده له السلك التجارى، ورأى ذلك أحسن ما يمكن أن يقدمه لابنه الأعز الأوحد. ولكن هذا الاتجاه لم يكن مناسباً لروحه، إذ أنه كان قد بدأ مبكراً الإلمام بالمعارف العامة، فضلاً عن أنه وجد من الحرية وفسحة الوقت وغير ذلك من الأسباب ما هياً له بلوغ مراده والهدف الوحيد الذى ولد من أجله - ألا وهو التزود بالعلم والثقافة. وعندما ازداد نضجاً، أتاحت له عدة فرص لم يكن له فضل فيها - فى الوقت الذى لم يستطع غيره التمتع بها اللهم إلا القليل بين أقرانه - ألا وهى الحياة الخالية تماماً من المتاعب عامة ومتاعب البحث عن لقمة العيش خاصة، الأمر الذى ساعده على متابعة دراساته عدة أعوام لم يكن مضطراً فيها إلى البحث عن مصدر مالى، بل كرس كل جهوده للدرس والتحصيل؛ كما استطاع أن يقضى وقته كله فى البحث والتأمل اللذين كانا من أشق ما يعرض للباحث. وأخيراً سمحت له بتدوين كل ما بحث وفكر فيه، دون أن يصرف انتباهه عنها أو أن يزعجه شىء قط.



ويقرر شوبنهاور أنه في «كل هذا مدين به لأبي، إذ لم يهيء لنا إمبراطور قط هذه السعة من الوقت. ومن ثم فإنني أحمل في قلبي ما حييت كل هذه الأفضال التي تجل عن البيان، وتلك الرحمة التي اتصف بها خير أب. ولسوف تبقى ذكراه خالدة مقدسة على الدوام».

وعندما أخضع ملك بروسيا مدينة دانتسيج لسيطرته في سنة ١٧٩٣ لم يستطع أبوه تأييد سقوط الجمهورية القديمة، إذ لم يكن قلبه أكثر تعاطفًا للحرية منه لوطنه؛ فقبل أن تحتل القوات البروسية المدينة ببضع ساعات بارحها هو وزوجته وطفله الذي كان في الخامسة من عمره. وقضى ليلة في بيته الريفى ورحل في نهار اليوم التالى بالقطار السريع إلى هامبورج. صحيح أنه خسر الكثير من أملاكه، ولكنه اشترى نفسه وأسرته وأنقذهما من مصير دانتسيج. وعلاوة على خسارته هذه. فقد أضر به تغييره مكان عمله للغاية، وتضاعف ضرره عندما اضطر إلى بيع أملاكه في هذه الظروف غير المواتية بأبخس الأثمان، مع دفع عشر ثمنها إلى الضرائب مقابل إعفائه من التزاماته قبل المدينة.

وكان ذلك الغلام الصغير هو آرتور شوبنهاور الذى كان عليه أن يعيش فى ذلك الوقت طفولة تعسة.. بلا وطن. ومنذ ذلك الوقت لم يفكر فى توطن بلد جديد، بل آثر أن يسير على نهج أبيه عندما أقام فى هامبورج حتى نهاية حياته وهو لا يريد أن يدرج اسمه ضمن المواطنين بل ظل يعيش دانتسيجياً - طبقاً لقانون الأجانب هناك.

أما آرتور، فقد كان فى ذلك الوقت ولده ووارثه الوحيد إذ لم تولد أخته إلا بعد خمس سنوات. ومن ثم، كان يهتم به اهتماماً فائقاً، بل قرر أن يجعل من ابنه هذا تاجراً قديراً ورجل مجتمع ذا طباع لطيفة.



وهذا يستلزم بالضرورة أن يجيد الفتى اللغة الفرنسية. ومن ثم قرر الأب أن يصطحب معه ابنه آرتور فى رحلته التى قام بها للتسلية فى سنة ١٧٩٧ إلى فرنسا وإنجلترا.

وكان الفتى فى ذلك الوقت فى التاسعة من عمره، فراح يتلقى علومه فى إحدى المدارس الخاصة، وبعد أن قضت العائلة الصغيرة فترة فى باريس Paris انتقلت إلى الهافر Havre حيث بقى الولد وحده ليتعلم اللغة الفرنسية ويتأثر بأداب الفرنسيين وعاداتهم.. أو فى كلمة واحدة بغية أن يصبح فرنسيًا. وقد تركه أبوه مع صديق العائلة جريجواردى بليريمير Gregoire de Blesimaire الذى كان يعمل فى التجارة؛ فأحسن ذلك الرجل ضيافة الفتى، وعامله على أنه ابنه الثانى الذى كان فى مثل سنه. وأحضر أساتذة خاصين لتولى أمر تعليمهما، فكانوا يأتون إليهما ليعلموهما كل ألوان المعرفة بالقدر الذى يتلائم مع سنهما الصغيرة؛ بل علموهما المبادئ الأولية فى اللغة اللاتينية على نحو تيسر لشوئنهاور الصغير معه فهم أصولها، حتى إذا ما وجد كلمة لاتينية لا يجد نفسه فى حيرة أمامها.

ويذكر شوئنهاور أيامه التى قضاها فى الهافر، فيقول «لقد عشت فى هذه المدينة اللطيفة التى تقع عند مصب نهر السين، وعلى شاطئ البحر - أمتع أيام طفولتي».

وبعد أن قضى آرتور ما يزيد على العامين فى الهافر - وقبل أن يتم الثانية عشرة من عمره - عاد وحده بالسفينة إلى همبورج. ولشد ما ابتهج أبوه الطيب بعودته، وزادت فرحة الأب عندما سمع ابنه يتكلم بالفرنسية كما يتكلم الفرنسيون - وإن كان قد آسف بعض الشيء



عندما ألفى ابنه قد نسي الألمانية إلى حد أنهم لم يكونوا يستطيعون فهم كلامه إلا بصعوبة بالغة.

ولما استقر بآرتور المقام فى هامبورج، الحقه أبوه بمعهد خاص كان يرأسه الدكتور رونجه D.Runge الذى كان رئيس تحرير إحدى الصحف التربوية فى نفس الوقت. وكان هذا المعهد يفتح أبوابه فحسب لأبناء الأثرياء الذين كانوا يعدون الطبقة العليا فى المدينة. وهكذا تعلم شوبنهاور الصغير - تحت رئاسة هذا الرجل الذائع الصيت وبتوجيه من المدرسين الآخرين الذين كانوا يعملون فى نفس المعهد - كل ما ينفع رجل الأعمال ويلائم الرجل المثقف. ولكن اللغة اللاتينية - التى كان آرثر - قد تلقى فيها دروسًا من قبل - لم يخصص لها أكثر من درس واحد أسبوعيًا؛ وحتى ذلك الدرس لم يكن جادًا إلا فى ظاهره.

وبقى آرتور فى هذه المدرسة قرابة أربعة أعوام، بدأت الرغبة فى أواخرها تستبد به قوية فى أن يتجه إلى الثقافة والعلوم، فطلب إلى أبيه فى حماس أن يدعه ينفذ رغبته هذه، وألا يدعه يصبح تاجرًا. ولكن الأب كان يشمئز من هذا الاتجاه؛ إذ كان يرى أن مصلحة ابنه فى أن ينصرف إلى التجارة، بالرغم من أن الدكتور رونجه أبدى أنه لا طاقة لآرتور بالأعمال التجارية، ونصح بأن يكون بعيدًا عن الاشتغال بها.

وبدأ رأى الأب الحازم يتعرض للهزات إلى حد أنه مال إلى الموافقة على أن يبعثه إلى إحدى المدارس الثانوية - ذلك أنه كان يضع مصلحة ابنه قبل كل شىء عداها، فلها الأولوية دومًا عنده. ولكن كان يضايقه فى هذا الاتجاه ما كان راسخًا فى الأذهان من



ارتباط قوى بين الفقر وبين مهن الثقافة، إلى حد لا يجوز معه الفصل بين الواحدة والأخرى. ولذا كان يعتقد اعتقادًا جازمًا أنه يتحتم الحيلولة دون هذا الحدث الخطير فى الوقت المناسب. وهكذا استقر رأيه على أن يجعل من ابنه أحد رجال الدين القانونيين فى هامبورج، وشغل هذا الأمر تفكيره فترة طويلة؛ إذ أنه فى الوقت الذى أراد أن يعد ابنه لذلك التطور فى حياته، كان لا يزال يفكر فى الثمن الغالى الذى كان عليه أن يدفعه فى مقابل ذلك التغيير فى خطة حياة ابنه الأوحد. وكان هذا سببًا كافيًا لتأخير القرار النهائي.

وفى هذه الفترة عاود الأب الأمل من جديد فى أن يصرف ابنه عن فكرته دون أن يلجأ إلى الضغط عليه، وخاصة أنه كان يقدر تمامًا حرية الفرد. وانتهى تفكيره - بعد مجهود مضمّن شاق - إلى طريقة مأكرة اختارها لتنفيذ إرادته: ذلك أنه كان يعلم علم اليقين أن ابنه مغرم برؤية العالم، وأنه يتوق إلى رؤية الهافر كى يلتقى بأصدقائه الأعزاء هناك. ومن ثم، قال الأب لآرتور أنه سيقوم هو وزوجته برحلة تسلية أخرى فى عدة بلاد من بلاد أوروبا، وأن آرتور يستطيع أن يشاركهما فى هذه الرحلة الباهرة التى يرى فيها الهافر مرة أخرى، شريطة أن يعد أبيه بأن يتجه بعد ذلك إلى التجارة. أما إذا أصر على نقيض ذلك - بانتهاج منهج المثقفين - فيجب أن يبقى فى هامبورج كى يزيد معلوماته فى اللغة اللاتينية. وترك الأمر لابنه ليختار أيهما شاء.

ولم يستطع قلب الفتى - الذى كان لا يزال فى السادسة عشرة من عمره - أن يقاوم مثل هذا الإغراء؛ فما كان من آرتور إلا أن قطع على نفسه الوعد الذى طلبه منه أبوه. وسافرت الأسرة فى ربيع سنة ١٨٠٣ من هامبورج إلى هولندا ثم إلى فرنسا ومن بعدها



إلى إنجلترا. وقضت الأسرة في لندن شهرًا ونصف الشهر ثم تابع الوالدان تجوالهما في داخل إنجلترا ثم اسكوتلندا، بينما تركا آرتور لأحد رجال الدين كان يقيم في ويمبلدون Wimbeldon على مقربة من لندن، وذلك بقصد تلقينه اللغة الإنجليزية وتعليمه إياها تعليمًا تامًا؛ فنجح الفتى في ذلك نجاحًا فائقًا إذ أتقن اللغة إتقانًا تامًا خلال الأشهر الثلاثة التي عاشها مع رجل الدين. فلما عاد أبواه إلى لندن لحق بهما؛ ومكثت الأسرة هناك شهرًا ونصف الشهر، ثم عادت إلى هولندا. ومن هناك واصلت رحلتها إلى بلجيكا، ثم إلى باريس.

وفي باريس قضت عائلة شوبنهاور أغلب فصل الشتاء، وكان يرافقها في هذه الفترة لويس مرسية Louis Mercier مؤلف «لوحة باريس» Tableau de paris. ثم انتقلت الأسرة بعد ذلك إلى الهافر ثانية، ومنه ذهبت إلى بوردو Bordeaux ومونبلييه Montpellier ونيمس Nimes ومارسيليا Marseille وطولون Toulon حيث زار الفتى سجن المدينة مما ترك في نفسه أثرًا عميقًا إذ شاهد فيه ستة آلاف من المجرمين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة وكانوا يعيشون عيشة رتيبة.. بلا أمل. وذهبت العائلة بعد ذلك إلى جزر هيري Hièrischen Inseln، ومرت بليون في طريقها إلى سويسرا. وبعد أن جابت العائلة أنحاء سويسرا، ذهبت إلى فيينا ثم إلى درسدن. وأخيرًا ذهبت إلى داننسيج حيث شهدت وطنها العتيدي؛ وعادت في النهاية إلى هامبورج في أوائل سنة ١٨٠٥ بعد غيبة بلغت قرابة العامين.

ومن الواضح أنه انقضت بهذه الرحلة سنتين من سني الشباب دون جدوى بالمرة، كان يمكن لآرتور استخدامهما في الدراسات واللغات القديمة. وظل شوبنهاور طول حياته يفكر في ما إذا جاءت



هذه الرحلة بثمرة لصالحه؛ وكثيرًا ما كان يقارن بين ما كسبه منها، وما ضاع عليه بسببها.

ويقول شوبنهاور إنه قام بهذه الرحلة في الفترة التي بدأت فيها لديه يقظة الرجولة. وفي هذه الفترة تفتح النفس البشرية لمختلف أنواع الانطباعات، وتتسع لديها القدرة على استقبال الأشياء وإدراكها. ولكن شوبنهاور لم يكن - كعاداته - ليكتسب بمجرد الكلمات الفارغة، والأخبار التافهة عن الأشياء التي لم يكن يعرفها من قبل، بل استطاع - عن طريق إدراك الأشياء، وبالمعرفة الحقيقية، والمعرفة المترتبة على ذلك، وعلى حقيقة ما يعرفه عن الأشياء من قبل - استطاع أن يتعود مقدمًا على أن لا يرضى بأسماء الأشياء فحسب، بل أن يصبر على تأمل الأشياء وفحصها بنفسه، مما انعكس على حياته في المستقبل. وهكذا لم يزعه قيامه بالرحلة في ذاتها، ولكنها صارت خطرًا مهددًا لمستقبله، ومدعاة لقلقه وشكواه عندما عاد إلى هامبورج، إذ كان عليه أن يبر بوعده الذي قطعه على نفسه لأبيه بأن يصبح تاجرًا.

وهكذا تتلمذ على أحد تجار هامبورج، كان في الوقت ذاته عضوًا بمجلس الشيوخ. ولم يكن شوبنهاور راضيًا عن دراسته إذ كانت طبيعته كلها ضد التجارة، بل إنه يعترف في كتاباته بأنه لم يكن هناك من يفوقه بلادة في هذه التلمذة.

لقد أهمل الفتى كل واجباته؛ ولم يعد يفكر إلا في كسب الوقت الذي يمكنه أن يقضيه في البيت مع الكتب، أو يستمتع فيه بالأفكار والخيالات. فقد كان يخفى في مكتبه دائمًا مجموعات من الكتب التي كان يستمتع بقراءتها حالما غفلت عنه أعين الرقباء.



وحدث فى ذلك الوقت أن كان جال Gall - المشهور بأبحاثه فى الرأس، والذى وضع الأسس التى قام عليها علم تكوين الجمجمة - كان يلقي مجموعة قيمة من محاضراته فى الدين. وأراد آرتور حضورها. ومن ثم، أخذ يزين صدر أستاذه يومياً بالورود حتى يسمح له بالذهاب لسماع المحاضرات.

وفى هذه الفترة بدأ الشعور بالخطأ يستبد بآرتور، وأحس بياس عميق من محاولة إصلاح غلطته إلى حد صار معه حاد المزاج، صعب المراس، شديداً على الآخرين، وأصبح يكره العمل الذى أجبر على القيام به، واعتبره أسوأ أنواع العبودية. وفى هذه الحالة النفسية المضطربة، ضربه القدر أعنف ضربة وأشدّها قسوة.. ذلك أن الموت اختطف أباه الحبيب قبل الأوان^(١). وبهذه الوفاة زادت حلقة ظلام عقله إلى حد أصبح معه قريباً جداً من الإصابة بالجنون^(٢).

ولم تك الأم تدرى من شئون التجارة شيئاً، بل كانت ترنو إلى الحياة الاجتماعية فحسب. ومن ثم، انتقلت إلى فايمار حيث كانت الحياة أكثر مناسبة لها. فقد كانت البلاد تعاني الكثير من الشقاء إثر واقعة بينا Jena. وكان الأهالى يشعرون بصنوف شتى من العذاب والأسى. ووجدت السيدة يوحنه فى هذه الظروف مجالاً لتبدى ما كان منطبعاً فى نفسها بالفطرة من الطيبة والعطف ورقيق السجيا والأسلوب الجذاب فى استقبال الناس. وماهى إلا أيام حتى صارت

(١) يبدو أنه مات منتحراً.

(٢) وكانت جدته لأبيه قد ماتت مصابة بالجنون، وكان كل من عميه قد أصيبا بالجنون أيضاً.



دار السيدة يوحنه مركز حلقة فكرية تضم كثيرًا من مشاهير المفكرين وأعلام الأدب والعظماء من المعاصرين.

وعلى الرغم من أن آرتور أصبح - منذ توفى أبوه - سيد نفسه إلى حد ما، إذ لم تكن أمه تعارضه قط، إلا أنه ظل يقوم بعمله عند التاجر. وقد يكون ذلك لأن الحزن الشديد - كما يقول شوبنهاور - قد كسر حدة نشاطه الروحي؛ فضلًا عن أن ضميره كان يمنعه من أن يلغى قرارات أبيه بمجرد وفاته. وبالإضافة إلى هذين السببين، فثمة سبب جوهرى منعه من التحول مباشرة عن التجارة إلى الدرس - ذلك أنه كان يعتقد أنه بلغ سنًا يصعب معها تعلم اللغات القديمة.

وقضى قرابة عامين عند ذلك التاجر، فضاع العمان عليه أيضًا ضياعًا تامًا ولم يستفد منهما أدنى فائدة، بل ظل طوالهما يتعذب بذلك اليأس الذى يفوق كل احتمال.

وراحت الأم تبعث إلى ابنها فى هامبورج بالرسائل التى تصف له فيها الحياة فى فايمار على أنها الجنة. فما كان من الفتى إلا أن كتب لها كتابات مؤثرة يستدر عطفها وتستجلب شفقتها، بما كانت تحوى من وصف مرير للحياة التى يعانيتها فى هامبورج. وقد بدا اللون القاتم بوضوح فى هذه الرسائل التى ضمنها شكواؤه من الحوائل التى تقف فى طريق أهدافه فى الحياة، ومن ضياع جهده وشبابه عبثًا فى عمل تافه - وهو ضياع لا يعوض، ومن تقدم سنه إلى حد لم تعد تسمح له بأن يترك الطريق المختار لحياته ليبدأ مسلكًا جديدًا وطريقًا أخرى.

ووقعت خطابات هذه فى يد كارل فرنوف Karl Fernow الذى كان أحد أصدقاء أمه المقربين إليها، والذى كان له عليها تأثير كبير؛ إذ



كان له أكبر الفضل فى تشجيعها على الكتابة حتى وصلت فى وقت قصير إلى مركزها الأدبى المرموق.

وعلى الرغم من أنه لم يكن يعرف آرتور، إلا أنه رأى كتابه الذى استثاره. فنصح الأم بأن تستدعى آرتور إليها، وبعث على الفور إلى الفتى بخطاب أوضح له فيه أن ما ضاع من الوقت يمكن تعويضه. وأخذ يضرب نفسه مثلاً لذلك، كما ضرب أمثلة أخرى لإثبات رأيه، منها أمثلة من أهم العلماء الموجودين وقتذاك. ونصحه بأن يلقي كل شئ وراء ظهره، وأن يبدأ دراسة اللغات القديمة على الفور.

وعندما قرأ آرتور ذلك الخطاب انهمرت الدموع من عينيه، واتخذ على الفور قراره الحاسم؛ فأنذر صاحب العمل بأنه ستركه. وذهب إلى فايمار فى أوائل ١٨٠٧ وكان قد جاوز الثامنة عشرة من عمره. وبناء على مشورة فرنوف ذهب آرتور على الفور إلى جوتا Gotha حيث قبل تلميذاً بالمدرسة الثانوية التى كانت من أشهر المدارس فى ذلك الوقت. ولم يستطع آرتور أن يحضر إلا الحصص التى كانت تلقى فيها الدروس باللغة الألمانية، وذلك لجهله النسبى باللغات القديمة. ولولا عناية العالم ديرنج Doring مدير المدرسة بآرتور؛ حيث خصه بحصتين يومياً لقنه فيهما اللغة اللاتينية وأصولها، لاستمر جهله بهذه اللغة شديداً، ولم تمض إلا فترة قصيرة استطاع فيها شوبنهاور أن يثبت تقدماً ملحوظاً جعل ديرنج يتنبأ له بأحسن مستقبل.

وأثر ذلك النجاح على الشاب أكبر تأثير، وانتشله من وهدة اليأس التى كان متردياً فيها، وجعله يتشجع ويتقدم مستمداً من كل خطوة



يخطوها أملاً جديداً. وظل يمضى نحو هدفه بعزم جديد وإرادة قوية. إلا أن سوء الحظ أصابه من جديد - ذلك أنه لم يكن قد تعلم كيف يمتنع عن النكات الخطيرة؛ فقد هاجم الأستاذ شولتز Schultz المدرس بالمدرسة فى إحدى الصحف اليومية الشعبة التى كان آرتور يتبعها، وانتقد الدروس التى كانت تلقى فيها باللغة الألمانية. وساء الشاب أن يوجه الأستاذ انتقادات علانية كهذه إلى شعبته، فانتهاز فرصة جلوسه إلى إحدى المناضد، ووجه الأستاذ بعض الانتقادات التى حشدها بالنكات. وقام بعض الزملاء بإبلاغ كل ما قاله الفتى للأستاذ. ونجم عن ذلك أن كف ديرنج عن إعطائه الدروس الخصوصية؛ وإن كان قد أكد له أنه فى الوقت الذى هو مضطر فيه للمحافظة على وعده، فإنه - ديرنج - مسرور إذ كان يعلمه. وأكد له أنه يرغب فى بقاءه بالمدرسة على أن يتلقى الدروس الخصوصية فى مكان آخر. ولكن شوبنهاور لم يشأ أن يفعل ذلك، بل ترك جوتا فى نهاية الفصل المدرسى وذهب إلى فايمار حيث كان يقيم باسوف Passow الأستاذ بجامعة بريزلاو، فدرس عليه اللغتين اللاتينية واليونانية. ثم قصر بعد ذلك دروسه لديه على اللغة اليونانية، بينما راح يتلقى دروساً فى المحادثة اللاتينية بالمدرسة الثانوية فى فايمار.

وضاعف الشاب جهوده، وراح يعمل فى دأب وجد - بدافع من تعطشه الشديد للمعرفة - على تعويض ما أضاعه من وقت فى ماضى حياته. وصار بخيلاً كل البخل بوقت فراغه، بينما لم يبخل قط بالمال فى إيجاد ما تحتاجه دراساته. وظل يجلس كل يوم إلى كتبه وأوراقه، كما لو كان يعمل من أجل الحصول على



لقمة عيشه وحاجاته الجسدية. ولم يعيش شوبنهاور مع أمه، بل
آثر أن يعيش مع باسوف - وفي نفس بيته - حتى يكون على الدوام
قريباً من أستاذه.

وكان أكثر ما يشغل به نفسه هو اللغات القديمة. وإلى جانب ذلك
واصل دراسة الرياضيات والتاريخ عن طريق الكتب وحدها؛ حيث
كان قد تلقى دروساً فيها من قبل.

وعلى هذا النحو قضى شوبنهاور عامين في فايمار صرح أساتذته
بعدها أنه أصبح صالحاً للدراسة في الجامعة. كذلك استطاع آرتور
أن يصلح في ثلاثة أعوام ونصف العام كل الخسارة التي نجمت
عن انقطاعه عن دراسة اللاتينية، فقد وصل إلى مستوى يماثل غيره
من الطلبة الآخرين في الإلمام باللغات القديمة. وسرعان ما تفوق
على أغلبهم بل على علماء اللغة أحياناً. وإلى حد أمكنه معه الرجوع
إلى كتب غاية في القدم. وداوم على قراءة آثار المؤلفين الإغريق
والرومان القدماء طوال مدة دراسته بالجامعة حيث خصص لها
ساعتين يومياً. وخرج من ذلك بعدد من المزايا؛ أولها أن ازداد
محصوله من المعرفة بالآثار القديمة. وإلمامه تدريجياً بروعتها
وخصائصها التي أصبحت معروفة له تماماً - عندما أتيحت له الفرصة
ليرى في إيطاليا مجموعة من الآثار الرائعة التي ترجع إلى أقدم عصور
التاريخ، وأن يرى بنفسه أدق بقايا العصر الكلاسيكي، ويقف منها
على روحها الغريبة. وهكذا تقدم أسلوبه تقدماً كبيراً، وتحسن كثيراً
كنتيجة طبيعية لقراءاته المستمرة لآثار المؤلفين القدماء، وخاصة
أولئك الفلاسفة من الإغريق.



وأخيراً، فقد حالت هذه القراءة المتصلة دون أن تتبخر المعلومات التي جمعها من اللغات القديمة في سرعة خاطفة، بل تعمقت جذورها في نفسه، إلى حد أنها لم تخطف قط من ذاكرته بعد كل تلك الدراسات المتعددة والمختلفة التي حصلها بعد ذلك. ولم يؤثر استخدامه للغة الإيطالية في التعبير عن نفسه أحياناً.. لم يؤثر ذلك في هذه المعلومات أو في طاقته في الكتابة والكلام باللغة اللاتينية؛ حتى أنه كان يؤكد دوماً أنه يستطيع أن يكتب بها دون مساعدة غيره، ودون أن يرسل كتاباته إلى برلين أو يعرضها على أحد - وإن كان يعرف أنه قد يفشل في الكلام. ولكن هذا - إن حدث - ليس إلا دليلاً على ضعف البشر ونقصهم، لا دلالة على جهله. فضلاً عن أن هذا أمر غير مستبعد بالنسبة لشخص لم يتعلم إعراب كلمة «Mensa» إلا وهو في السنة التاسعة عشرة من عمره.

وفي نهاية سنة ١٨٠٩ عندما بلغت به السن مبلغ الرشد سلمته أمه ميراثه الذي يقدر بثلاث الأملاك التي تركها لهم أبوه. وكان ما بقي منه في ذلك الوقت كافياً لضمان العيش له، فذهب إلى جامعة جيتنجن حيث اجتاز امتحان القبول في كلية الطب. وفي الكلية تعلم كيف يعرف نفسه، ودرس الفلسفة دراسة سطحية؛ ولكنه كف عن دراسة الطب، وقصر كل جهوده على الفلسفة. ويرى شوبنهاور أن الوقت الذي قضاه في دراسة الطب لم يضع عبثاً، إذ أنه لم يستمع إلا للمحاضرات التي تفيد الفيلسوف بل تعد ضرورية له. وثابر خلال العامين اللذين قضاهما في جيتنجن على الدراسة بدأب متصل كما تعود من قبل. وكانت لديه قابلية خاصة لدراسة الموضوعات العلمية بحكم سن النضج التي بلغها والخبرة التي اكتسبها، وطبيعته المختلفة



تمامًا عن طبيعة الآخرين، مما كان يدفعه دائمًا إلى العزلة والوحدة. ورغم مواظبته على حضور المحاضرات، فقد كرس كثيرًا من الوقت لقراءة الكتب التي كان يفضل منها ما كتبه أفلاطون وكانت.

وفي خلال هذين العامين حضر محاضرات ج.أ. شولتسر G.E.Schulzes عن المنطق والميتافيزيقا وعلم النفس، ومحاضرات تيباوت Thibaut في الرياضة البحتة، ومحاضرات هيرين Heeren في التاريخ القديم وتاريخ الحروب الصليبية وعلم السلالات البشرية، ومحاضرات ليدر Lüder في تاريخ الإمبراطورية الألمانية، ومحاضرات بلومنباخ Blumenbach في العلوم الطبيعية والمعادن ووظائف الأعضاء والتشريح المقارن، ومحاضرات همبل Hempel في تشريح الجسم الإنساني، ومحاضرات شتروماير Strohmeier عن الكيمياء، ومحاضرات طوبياز ماير Tobias Maier عن علوم الطبيعة والفلك الطبيعي، ومحاضرات شرادر Schrader عن علم النبات - وكلهم من الأساتذة الممتازين.

وفي خريف ١٨١١ ذهب إلى برلين حيث قبلوه في جامعته، وحاول بكل القوى أن يربى روحه وعقله على أيدي الأساتذة المشهورين الذين تخرج بهم هذه الجامعة. وهكذا سمع محاضرات فولف Wolf عن الشعراء الإغريق والرومان وعن آثار الإغريق وتاريخ أدب الإغريق، ومحاضرات شلايرماخر Schleiermacher عن تاريخ الفلسفة. وسمع بمتعة كبرى المحاضرات العامة التي كان إرمان Erman يلقيها عن المغناطيسية والكهربية. وفضلاً عن ذلك حضر ثلاثة فصول دراسية أخرى سمع خلالها محاضرات ليشتنشتاين Liechtenstein عن علم الحيوان، ومحاضرات أخرى في الكيمياء كان يلقيها



كلا بروت Klaproth، كما حضر محاضرات فيشر Fischer عن العلوم الطبيعية، ومحاضرات بوده Bode عن الفلك، ومحاضرات فايس Weiss عن علم تركيب الأرض Geognosy ومحاضرات هوركل Horkel عن علم وظائف الأعضاء العام ومحاضرات روزنتال Rosen-thal عن تشريح المخ البشري. واستفاد شوبنهاور الكثير من المزايا العظيمة التي اتصف بها هؤلاء الأساتذة الكبار. كما تتبع بانتباه محاضرات فيشته الفلسفية؛ وحدث ذات مرة أنه جادل فيشته طويلاً في إحدى الندوات التي كان مستمعوه يقيمونها له.

وكان من المقرر أن يقضى شوبنهاور عامين آخرين في برلين لولا مشاكل الحرب التي اضطرت له للخروج من المدينة في الفصل الدراسي الأخير من سنة ١٨١٣، وهو أمر سبب له الكثير من المتاعب؛ إذ بدلاً من إكماله دراسته بالطرق العادية للحصول على درجة الدكتوراه من كلية الفلسفة بجامعة برلين، اضطر إلى البحث في طريقة أخرى لتقديمها من خارج برلين. ولما كان على صلات طيبة مع ليشنتشتاين فقد أخبره بالشروط والاحتياجات المطلوبة لعمله؛ وهي وضع بحث «حول الجذر الرباعي لمبدأ العلة الكافية»، وأن يكون أسلوب البحث على مستوى عال في اللغة الألمانية.

ولما كانت نتائج معركة ليتزن Lützen غير مؤكدة؛ فإن مدينة برلين بدت في عين شوبنهاور مهددة، وخاصة أن معظم أهاليها خرجوا إلى فرنكفورت أو بريزلاو. أما هو فقد فضل أن يذهب نحو العدو فمضى إلى دريزدن حيث بلغها في اليوم الثاني عشر من رحلته هذه التي مر فيها بعدة أحداث ومخاطر. وقرر شوبنهاور أن يبقى هناك، ولكنه أدرك الأخطار الوشيكة الحدوث في هذه المدينة فذهب إلى فايمار.



وفى هذه المدينة أقام فترة فى مسكن أمه، إلا أنه استاء من الظروف السكنية المحيطة به إذ كان يرى أمه مسرفة غاية الإسراف، فإذا ما نصحها بالاقتصاد فى مصروفها انقلبت عليه وقام الشجار بينهما.

كذلك كان له صديق يدعى فريدريش موللر Friedrich Muller يقطن فى البيت المجاور لهم. وكثيراً ما كان يدب الشجار بين آرتور وصديقه نظراً للاختلاف الكلى فى تفكير كل منهما، وكانت أمه تتدخل دائماً فى هذا النزاع. وتشتد حمى الصراع بين الابن وأمّه إذ كانت ترى أنه شخص لا يحتمل، وعبء ثقيل لا يطاق، وأن الحياة معه صعبة إذ تظلّل صفاته الطيبة غروره ونزعتّه إلى تعقب عيوب الآخرين. وبالإضافة إلى ذلك، فإن آرتور لم يعجبه مسلك أمه الشخصى، وعلاقتها بالرجال؛ فقد كان الناس يتحدثون عن ذلك فى كل مكان، وكانوا ينظرون إلى علاقتها بجيته فى غير ارتياح إذ كان الشاعر الكبير يميل إلى البقاء إلى جوارها بدافعين: أحدهما ميله العاطفى نحوها، والثانى أنها كانت تسمح له باحضار عشيقته كريستنه معه إلى بيتها. وزاد الأمر سوءاً عندما قال جيته لها أن ابنها سيصبح رجلاً مشهوراً، ولم تكن السيدة قد سمعت بوجود عبقريتين فى أسرة واحدة.

وأخيراً عمدت الأم - فى نزاع شديد نشب بينهما - إلى دفع ابنها ومزاحمها من فوق الدرج. وهنا قال لها الفيلسوف فى مرارة إنها لن تكون معروفة إلا عن طريقه.

وقرر شوبنهاور أن يبحث عن مأوى آخر فذهب إلى رودول شتات حيث قضى بقية السنة فى أحد الفنادق الصغيرة. ولكنه استراح لهذا



الفندق، واعتبره أكثر أماكن الإقامة ملائمة لرجل ضال بلا وطن في تلك الأيام العصيبة القلقة. هذا فضلاً عن أنه كان وقتذاك يعاني تعباً ذهنياً عميقاً، بل كان في حالة يأس قاتل، وخاصة أنه رأى حياته تنهار مرة واحدة؛ وهذا يتطلب طاقات أخرى لم يجد لها في نفسه أثراً. إلا أنه في عزله في رودلشتات رأى الكثير من الأمور التي تجذب الانتباه وتأسر النفس في ذلك الإقليم. ولما كانت طبيعته لا تتفق مع كل ما هو عسكري، فقد كان سعيداً للغاية بأن الوادى الذى تحيط به من جميع جوانبه الجبال المغطاة بالغابات - لا يمكن أن يرى فيه جندياً واحداً أو يسمع فيه دق الطبول. وهكذا قضى معظم وقته في عزلة تامة، ولم يكن هناك ما يستثير انتباهه أو يقطع عليه بحثه. أما الكتب، فكانت في متناول يده في مكتبة فايمار.

وهكذا أتم شوبنهاور بحثه «حول الأصل الرباعى للعلة الكافية»، الذى يعتقد أنه ليس إلا مقدمة وتمهيداً لكتابه «العالم.. إرادة وتخيّل».

قال إنه ينبغي أن يقرأ رسالة «عن الأصل الرباعى للعلة الكافية» حتى يفهم عمله الرئيسى «العالم.. إرادة وتخيّل».

ويمكننا أن نذكر هنا فى إيجاز أن «مبدأ العلة الكافية» إنما هو «قانونى المسبب (السبب) والمسبب (الأثر أو النتيجة)» فى أول أربع صور هي:

أولاً: صورة منطقية مثل حتمية بلوغ النتيجة عن طريق الهدف.

ثانياً: صورة طبيعية مثل حتمية الوصول إلى المسبب (النتيجة) عن طريق المسبب (السبب).



ثالثاً: صورة رياضية مثل حتمية إيجاد كيان عن طريق القوانين الرياضية والميكانيكية.

رابعاً: صورة أخلاقية مثل حتمية إيجاد السلوك عن طريق الشخصية.

وظل الأمل يراوده دائماً فى العودة إلى برلين حيث كان يريد أن يقدم البحث وينال الدرجة. ولكن الأمور لم تسر على هذا النحو لأن الطرق المؤدية إلى برلين لم تكن خالية من الجنود - سواء فى أثناء الهدنة أو خلال الحرب التى تلتها. وعلى الرغم من أن درجة الدكتوراه كانت ذات نفع كبير له وقتذاك، إلا أن العوائق بدت كثيرة فى طريقه؛ فكتب إلى كلية الفلسفة بجامعة بينا، وأرسل إليها البحث، فمنحته الكلية على الفور درجة الدكتوراه فى الفلسفة تفضلاً منها. ومع بداية فصل الشتاء الذى بدا له حزيناً جداً، وهو فى ملجأه المنزلى الذى صار وقتذاك مهبط الجنود هو الآخر، عاد الدكتور شوبنهاور إلى فايمار حيث قضى فصل الشتاء كله.

وفى هذه الفترة تعرف على جيته، الذى كان شوبنهاور يعتبره أعظم رجل فى القرن التاسع عشر وأعظم رجل أنجبته الأمة الألمانية. وقال إن اسمه سيظل ملء الأفواه فى جميع العصور، وأكد أن تعرفه بجيته يعتبر عزاء لكل العناء الذى لاقاه. ويعدده أسعد الأحداث التى مرت بحياته وأكثرها إمتاعاً - ذلك أن جيته اعتبره جديراً بصداقته وبصحبه الخاصة. ولم يكن جيته يعرف شوبنهاور حتى ذلك الوقت إلا بمنظره فحسب، ولم يكن من عادته أن يوجه إلى شوبنهاور كلمة واحدة؛ حتى إذا ما قلب صفحات البحث الذى وضعه للدكتوراه جاء



إليه بمحض إرادته وسأله إذا ما كان مستعداً لدراسة نظريته - نظرة جيته - فى الألوان. وقد وعد جيته شوبنهاور بتقديم كل مساعدة لبيان وتوضيح هذا الموضوع الذى كان يمكن أن يقضيا فصل الشتاء فى المناقشات حول فكرته. وقد يوافق شوبنهاور من آرائه البعض، وقد يعارض بعضها. وبعد بضعة أيام أرسل جيته لشوبنهاور جهازاً وبعض الآلات الضرورية التى كان يستعملها فى إنتاج المظاهر اللونية؛ وقام جيته بنفسه بعد ذلك بأشق التجارب. وسره أبلغ ما سره أن عقل شوبنهاور لم يكن مشغولاً بشىء قط، وأنه وافقه على نظريته. ومنذ ذلك الوقت وطوال فصل الشتاء كان شوبنهاور يتردد على جيته. ولم تقتصر المناقشات التى دارت بينهما على نظرية الألوان؛ بل دارت حول كثير من المسائل الفلسفية، وكانت المساجلات تستمر بينهما ساعات طويلة. ويعلق شوبنهاور على نتائج هذه المعرفة الوثيقة مع جيته بأنها كانت ذات «فائدة عظمى بدرجة لا تصدق».

ومع بداية ربيع سنة ١٨١٤، وبعد أن استقر السلام العام ذهب آرتور إلى دريزدن لمتابعة دراساته ومعرفة المنهج الفلسفى بصفة خاصة مما كان يشغل ذهنه فى ذلك الوقت. واستفاد شوبنهاور من مكتبة دريزدن الفنية، كما شاهد معرض الصور المشهور فى المدينة، ومجموعة الصور القديمة، وبعضها أصيل وبعضها منقول على الجص - وأخيراً رأى الجهاز العلمى الطبيعى البديع. وعاش فى تلك المدينة اللطيفة خمسة أعوام ونصف العام دون أن يقلقه أو يزعجه شىء سوى الانشغال بالبحث العلمى المتعدد الفروع، وقراءة كل أعمال الفلاسفة الذين وجدوا فى هذه الحياة.. أولئك الذين قدموا آراءهم، لا أولئك الذين اكتفوا بأن فسروا ما فكر فيه غيرهم ثم كرروه.



ومن خلال هذه الدراسات كلها، فكر فى سنة ١٨١٥ فى نظرية جديدة للألوان. ومما لا شك فيه أنه وجد أن جيته لم يكتشف روح وتكوين ما يسمى بالألوان العضوية فحسب، بل على العكس من ذلك لم يقدم أية نظرية عامة للون؛ فهى فى رأيه أبعد ما تكون عن النظريات الطبيعية أو الكيميائية بل مجرد نظرية خاصة بعلم وظائف الأعضاء.

وجرت المحادثات بين جيته وشوبنهاور، وتبادلا الرسائل عامًا كاملاً حول هذه النظرية الخاصة باللون التى أرسلها شوبنهاور مخطوطة إليه؛ ولكن الرجل العظيم (جيته) رفض إطراءها، وإن لم يعارض شوبنهاور قط فيما وصل إليه - ذلك أن نظريته كانت نقيض نظرية نيوتن تمامًا؛ ولكنها كذلك لم تكن تتصل بنظرية فى بعض خصائصها. «ولكن الحدس» - كما يقول Bacon من فيريولا Verulam - «لا يكون من الضوء الجاف بل يتأثر بالإرادة والمؤثرات». وقدم شوبنهاور هذا البحث عن «الإبصار والألوان» للجمهور فى سنة ١٨١٦ دون أن يشك فى أنه أول من وافق جيته. هذا فضلاً عن أنه كان واثقًا ومقتنعًا تمامًا بأن النظرية قد نمت من هناك، وأنها النظرية السليمة الوحيدة؛ حتى أنه كان يعتقد أنه لن يمضى وقت طويل حتى يتم الاعتراف بها، ويؤكد أنه لا الصمت فى حقد ولا الإنكار المستمر يمكن أن يحول دون الحقيقة، أو أن يكبتها. ويستند فى ذلك إلى العبارة التى قالها الليفيون من «أن موقف الحقيقة غالبًا ما يكون صعبًا، ولكنها لا يمكن أبدًا أن تتحطم».

وأخيرًا انتهى شوبنهاور فى سنة ١٨١٨ من نظريته الفلسفية التى دأب على العمل فيها قرابة خمس سنوات. ووضح فيه نفسه كلية بحيث صارت أعماله الأخرى «مجرد تعليقات عليه».



وفى ٢٨ مارس من ١٨١٨ قدم شوبنهاور للناشر ف. أ. بروكهاوز
F.A Brockhaus مؤلفه «العالم إرادة وتخيل» Die Welt als Wille
und Vorstellung وذلك بخطاب نثب فى الصفحة التالية الترجمة
الكاملة لنصه.



من شوبنهاور إلى ف. أ. بروكهاوز عن الجزء الأول من «العالم - إرادة وتخيل»

لما كان السيد فون بيدنفيلت Hr.v.Biededfeld قد قال لى إنك - بناء على استفسار سابق - ليس لديك مانع من طبع كتاب لى، فإنى أخذ لنفسى الحرية فى أن أوضح لك - على نحو أكثر تفصيلاً - ما سبق الكلام عنه.

فإنى أود أن أنشر قبل عيد ميلاد القديس ميخائيل القادم عملاً فلسفياً ظللت أداوم العمل فيه دون انقطاع منذ أربعة أعوام. وإنى ككاتب أرى أنه ليس من اللائق قط من ناحية - أن أسلك طريقاً متواضعاً نحو الناشر، ومن ناحية أخرى ليس من الصواب بحال أن أسلك طريق النفاق. ولذلك أتحدث هنا بكل صراحة عما يحتويه الكتاب الذى أرى أنك قد تهتم به. ولكنى فى نفس الوقت أستمسك بوعدك - وعد الرجل الشريف - أن تلتزم إزاء كل ما يرد ذكره هنا، حتى عنوان الكتاب الذى لن يعرفه أحد قبل نشره فى قائمة الكتب. والآن.. كتابى يتناول منهجاً فلسفياً جديداً، ولكن ليس بكل ما تعنيه هذه الكلمة تماماً. فعملى ليس عرضاً جديداً لشيء موجود فعلاً،



وإنما هو خط من التفكير - مترابط إلى أسمى درجة - لم يرد على ذهن بشر من قبل. وسيكون هذا الكتاب وفقًا لرأى الوطيد - بما تجشمت فيه من صعوبة إعلام الآخرين بما هو مفهوم - واحدًا من تلك التى تعد مصدرًا وفرصة فيما بعد ظهور مئات الكتب الأخرى. ولقد كان هذا الخط من الأفكار - من حيث المبدأ - حاضر فى ذهنى، من أربعة أعوام مضت. ولكن تنميته وجعله واضحًا كل الوضوح أمام نفسى، تطلب منى قضاء أربعة أعوام كاملة شغلت نفسى خلالها به وبدراسة الكتب الأجنبية التى تمت إليه بصلة. ولقد بدأت منذ عام فى توضيح كل هذا للآخرين فى عرض مترابط. وهذا العرض فى ذاته هو بنفس الطريقة أبعد ما يكون عن الطنطنة والكلمات الفارغة التى لا معنى لها مما تحفل به المدرسة الفلسفية الحديثة، كما أنه بعيد كل البعد عن العبارات المطاطة المتراخية التى كانت سائدة قبل «كانت»؛ فعبارتى مفهومة واضحة إلى أسمى درجة، ولكنها فى نفس الوقت حيوية، ويمكننى أن أقول إنها ليست خالية من الجمال؛ فصاحب الأفكار الأصلية لا يكون إلا صاحب أسلوب أصيل، أما القيمة التى ضمنتها عملى فعالية جدًا، حتى أنى اعتبره كل ثمرة وجودي؛ فإن الانطباعات التى يتركها العالم على روح الفرد وفكره، والتى تتشكل لتتفاعل مع الروح تظل باقية دائمًا بعد اكتمال سن الثلاثين. وهذا ما حدث فعلاً؛ أما ما يجيء بعد ذلك بعد ذلك فليس سوى تنمية لها. وإذا كان هذا الانفعال وهذا الفكر - الذى يتكرر يومياً مع ملايين الأفراد - يختلف عند الرجل العام عن ذلك الذى هو فى الحقيقة أكثر أصالة، فكذلك يكون العمل - الذى ينطبق بكل ذلك، ويدعنا نشترك فيه على نحو كامل - يمكن على الفور أن يكون تاماً حالما



يسمح القدر بالفراغ له، وبالهدوء الداخلى والخارجي. والآن، هذه الحال حدثت لى فيما أعتقد، فلو أنى إذن طبقاً للقيمة التى ضمنيتها عملى وجعلتها مقياس طلبى منك لكانت شيئاً يفوق الطاقة كثيراً، وحتى لو أنى جعلت طلبى طبقاً للقيمة التى ستكون لعملى بالنسبة للناشر فى رأى لجاءت عالية جداً أيضاً. وهذا أيضاً لن أفعله إذ أنى لن أستطيع أن أطلب إليك أن تصدق كل ما أقوله لك، ولكن يجب طبعاً أن تشك فى أنى ارتشيت من حبى لنفسى. وعلى فرض ذلك فإنى مستعد أن أبدأ باعتبار أن اسمى لا يزال غير مشهور حتى الآن، وأن العمل الفلسفى طالما أنه لم يصل إلى الشهرة فلن يجد جمهوراً كبيراً فى أول الأمر - وإن كان يجد جمهوراً أكبر فيما بعد. وعلى هذا الأساس يقوم المطلب التالى البسيط للغاية.

عنوان الكتاب هو «العالم - إرادة وتخيّل» لآرتور شوبنهاور وبه ملحق يحتوى على انتقادات لفلسفة «كانت» «Die Welt als Wille und Vorstellung von Arthur Schopenhauer, nebst einem Anhang, der die Kritik der kantischen philosophie enthält»

ويقع الكتاب - طبقاً لتقديرى إذا طبع - كما أحب - بحيث تضم الصفحة ما لا يزيد على ٣٠ سطراً فى ٤٠ ورقة من الحجم الكبير. وقد تتلقى منى ثلثى الكتاب فى منتصف يوليو - لا قبل ذلك - لأنه على الرغم من كونه معداً حالياً - إلا أنى أود أن أنسخ منه نسخة جديدة، أدخل فيها الكثير من التعديلات فى العرض. أما الثلث الباقي، فتتلقاه فى شهر سبتمبر على الأقل. وعليك أن تباشر فى عيد ميلاد القديس ميخائيل بطبعه فى أناقة على ورق جيد وبحجم كبير وبحروف واضحة، ولقد وعدتني فى العقد بأن تطبع منه ثمانمائة



نسخة على الأقل، وأن النية معقودة لديك على إعادة طبعه بعد ذلك طبعة ثانية. ولقد وعدتني بشرفك وذمتك أن تراجع وتصحح بدقة وعناية كل ورقة ثلاث مرات قبل طبعها نهائياً، وأن تكلف رجلاً متعلماً - أوافق عليه - ويكون المخطوط الأصيل بيده بإجراء المراجعة الأخيرة عليه، وستدفع لى قطعة ذهبية واحدة من العملة «دوكات» عن كل ورقة مطبوعة، ويكون الدفع فور تسليمى المخطوط؛ إذ أنى سوف أسافر - حال ذلك - إلى إيطاليا فى تلك الرحلة التى أجلتها عامين كرستهما لهذا العمل. وأخيراً ستسمح لى بعشر نسخ على ورق جيد. ولا يمكننى أن أرسل ذلك المخطوط لتطلع عليه لأن أحد سواى لا يستطيع قراءته الآن - هذا من ناحية - أما الناحية الأخرى، فلأنى لا أفرط فيه طالما أنه لا توجد لدى نسخة أخرى، وأخيراً لأنى أيضاً مشغول به باستمرار.

وأرجو أن يصلنى منك دونما تأخير - ردك الكريم الحاسم، إذ أنه فى حالة ما إذا لم تقبل عرضي، فقد طلبت من بعض المسافرين إلى ليبتسيج أن يبحثوا لى عن ناشر فى السوق هناك.

ويبدو أن السيد فون بيدينفيلت قد كتب إليك يقول إنى أريد أن أقدم مادة «اللون» لدائرة المعارف Konversation slexikon، ولكن هذا خطأ تماماً فأنا لا أفعل مثل ذلك العمل. ولكن كل ما قبلته هو أنه إذا كتب مستر فون بيدينفيلت تلك المادة بنفسه فسوف أقرؤها وأصححها، كما فعلت للأستاذ فيشينوس Ficinus فى مادته التى كتبها عن «اللون» فى قاموس بيرش Pierschen Wörterbuch.

ولقد تفضلت فى الخريف الماضى، فعرضت على قطعتين من



العملة الذهبية مقابل كل صفحة للمقالات التى تنشر فى صحيفة الفن Kunstblatt إلا أن هذا الأمر لم أستطع القيام به؛ إذ أننى لا أكتب للصحف أو المجلات إطلاقاً.

وأود أن أكرر هنا ما أبديت من أنى لن أوافق على تسليم المخطوط قبل الزمن الذى حددته من قبل، والكمال الذى أنشده لعملى يحول دون ذلك.

وتقبلوا أسمى احترامى ..

دريزدن فى ٢٨ مارس ١٨١٨

آرتور شوبنهاور

ووافق الناشر على ما جاء فى خطاب شوبنهاور، فتم بذلك الاتفاق بينهما على طبع الكتاب الذى ظهر فعلاً فى شهر ديسمبر فى نفس السنة. وكان شوبنهاور شديد الثقة بأنه - بهذا العمل - قد حل المسائل الرئيسية فى الفلسفة إلى حد أنه فكر فى أن يجعل لنفسه خاتماً ينقش عليه صورة أبى الهول وقد ألقى بنفسه فى هوة سحيقة؛ إذ كان أبو الهول قد أخذ على نفسه أن يفعل إذا استطاع أمراً أن يحل لغزه الغامض^(١). وبالرغم من ذلك، لم يسترع الكتاب انتباه أحد؛ إذ

(١) المقصود بأبى الهول هنا ذلك الحيوان الخرافى الذى نسجت من حوله الأساطير الإغريقية، فجعلته يخرج للناس عند مدخل المدينة. ويطلب منهم حل لغز غامض هو سؤاله عن ذلك الذى يسير فى أول النهار على أربع، وإذا ما انتصف النهار وتوسطت الشمس كبد السماء سار على اثنين، فإذا ما مالت الشمس للمغيب سار على ثلاث. وكان أبو الهول يقتل أولئك الذين لا يتوصلون إلى حل لغزه حتى إذا



كان العالم غاية في الفقر والإملاق، وغاية في الإنهاك - إلى حد لا يستطيع معه قراءة شيء عن فقره وإنهاكه.

وقد تأكد هذا لشوبنهاور بعد ستة عشر عاماً من نشر الكتاب، إذ علم من الناشر أن معظم نسخ هذا الكتاب قد بيعت بالأقّة. وكان ذلك مبعثاً لأن يضمن مقاله عن «الشهرة» الذي نشره في كتابه «حكمة الحياة» عبارتين تشيران إلى كتابه الرائع، نقلهما عن ليشتنبرجر Lichtenbeger وهما:

«إن الأعمال التي على هذا المنوال تبدو مثل المرأة، لو أطل فيها حمار فلا تنتظر أن تنعكس على صفحتها صورة ملاك؟».

«وعندما يصطدم رأس وكتاب، فيرن أحدهما رنيناً أجوف، فهل ينبعث ذلك الرنين دوماً من الكتاب؟!».

ويمضى شوبنهاور يقول وكأنما يريد الانتقام لكرامته المهذرة وكبريائه الجريح:

«كلما زاد انتماء الإنسان إلى الإنسانية بصفة عامة، ازداد غربة عن معاصريه لأنه طالما لم يك عمله قاصراً عليهم، بل كان يقصدهم به باعتبارهم جزءاً من البشرية عامة فلن يكون في هذا العمل ذلك اللون المحلي المألوف الذي يستهويهم».

ثم يصيح بفصاحة الثعلب في تلك الأسطورة الخرافية - عندما

ما مر به أوديب، تكشف له الأمر وحل اللغز إذ يقن أنه يشير إلى الإنسان الذي يزحف بعد ميلاده على يديه ورجليه، فإذا ما شب سار على رجله وحدهما، حتى إذا ما بلغ من الكبر مبلغاً راح يستعين بعصى يتوكأ عليها. وهنا لم يسع أبو الهول إلا أن يلقي بنفسه في هوة سحيفة ليريح العالم من نفسه.



يقول: «هل يزهو موسيقى بالثناء والتصفيق المدوى الذى يقابله به جمهور إذا ما عرف أن هذا الجمهور ليس إلا أصم، وأن هذا الجمهور عمد إلى إخفاء دائه بأن قلد واحدًا أو اثنين من المستمعين وهما يصفقان؟! وما رأى هذا الموسيقى إذا علم أن الذى صفق أو اللذان صفقا قد ارتشيا لإثارة أكبر استحسان لأضعف عازف؟!».

وهكذا يتولد الغرور والإعجاب بالذات عند بعض الناس كتعويض عن نقص الشهرة، وقد يعاون عند البعض الآخر على إيجاد هذه الشهرة.

وعلى أية حال، فقد شرع شوبنهاور فى رحلته التى كان يعتزم القيام بها للاستجمام، بمجرد تسليمه أصول الكتاب للناس. وذهب إلى إيطاليا عن طريق فيينا Wien ورأى مدينة البندقية Venezia وبولونيا Bologna وفلورنسا Firenze. وأخيرًا وصل إلى روما حيث ظل فيها قرابة أربعة شهور، واستمتع بمشاهدة الآثار القديمة والأعمال الفنية الحديثة. وبعد ذلك قصد Napoli، وأعجب بآثار بومبى Pompeii والهيركولانوم Herculaneum، وبوتولى Puteoli وبايا Bajâ وكوما Cumâ. وذهب بعد ذلك إلى بيستوم Pâstum حيث فكر - وهو على مرأى من المعبد القديم فى مدينة بيستوم - فكر أن هذا المعبد شهد ٢٥ قرنًا من الزمن، وهو يثير فى النفس احترامه، وفى أنه ربما كان هو - شوبنهاور - وقفًا على الأرض التى دب عليها أفلاطون بقدميه. وبعد أن قضى شهرًا فى فلورنسا زار البندقية مرة أخرى. ثم ذهب إلى بادوا Padua وفيشنسا Vicenza وفيرونا Verona وميلانو Milano. وأخيرًا دخل سويسرا عن طريق ممر سان جوتهارت St. Gothardt-Berg. وبعد أن قضى أحد عشر شهرًا فى التجوال عاد إلى درزدن مرة



أخرى فى أغسطس سنة ١٨١٩ دون أن يزور اللورد بايرون فى مدينة البندقية، وكان يحمل معه رسالة توصية من جيته إلى اللورد بايرون. كذلك لم ير ليوباردى فى روما رغم أنه يقول إن كلاً من روجيهما العظيمين ذات صلة وارتباط به.

وفى هذه الآونة راودته فكرة عابرة، سرعان ما سيطرت عليه، فراح يعمل على تنفيذها على الفور. كان يريد خلق مركز له فى الحياة العلمية الأكاديمية حتى يتاح لنظريته انتشاراً أوسع. ومن ثم قام باتصالات واسعة فى هيدلبرج Heidelberg وجيتنجن Göttingen وبرلين Berlin. وبعث إلى جامعة برلين برسالته التى تعد من المراجع الرئيسية الباقية لنا عند تسجيل الفترة الأولى من حياته. وفى هذه الرسالة يعرض على الجامعة أن يلقى محاضرات فلسفية فى كلية الفلسفة بها.

وفى ٢٣ مارس ١٨٢٠ قام بإلقاء محاضرة تجريبية عن الأنواع المختلفة للسببية، وما أن انتهى منها حتى كان الصراع قد بدأ مع هيغل. وعلى الرغم من أنه كان من الصعوبة بمكان على محاضر شاب أن يكسب الطلبة إلى جانبه - فى الوقت الذى يلمع فيه مشاهير المحاضرين أمثال شلايرماخر Schleiermacher وفيشته وهيجل - إلا أن شوبنهاور جعل محاضراته عن «الفلسفة الكلية أو نظرية طابع العالم والروح الإنسانية».

“Die gesamte Philosophie oder die Lehre vom Wesen der Welt und vom menschlichen Geist”.

وواصل شوبنهاور عناده، وعمد إلى اختيار الساعات التى كان



يلقى فيها هيجل محاضراته ليلقى هو - شوبنهاور - فيها محاضراته. وانتهى به هذا العناد إلى أنه لم يجد في قاعة المحاضرات التي كان يلقي فيها محاضراته في الفصل الصيفي من سنة ١٨٢٠ سوى القلة من الطلبة. وزاد فشله يوماً بعد يوم نتيجة إصراره على هذه السياسة التي رسمها، إلى حد أنه شعر بذلك الفشل الذي منى به رغم أنه لم يكن متحدثاً فاشلاً، ورغم أن مخطوطات محاضراته - التي ما زالت باقية حتى اليوم - تدل على براعة تناوله الموضوع.

وهكذا يتأكد لنا أنه لم يكن ثمة عيب في محاضراته، ولكن انصراف الطلبة عنه إنما جاء نتيجة تجرؤ شوبنهاور على محاربة الفلسفة التي كانت تشق - في ذلك الوقت - طريقاً قد أحاطت بها أكاليل النصر وحشود المهللين من المعجبين بها. ومن ثم كان عليه أن يضاعف من جهوده ضد المدرسة الفلسفية السائدة عامة، وضد هيجل وتلاميذه خاصة.

وأسفر هذا الصراع أيضاً عن أثر عكسي على كتابه «العالم - إرادة وتخيّل» فبدلاً من أن يلقي رواجاً نتيجة عمله في الجامعة، فقد صادفه نفس المصير سواء عند النقاد أو فيما يختص بعملية بيع نسخه.

وأخيراً تصدت له بعض المتاعب التي انتزعت منه ما تبقى لديه من متعة في الوجود في برلين، فما كان منه إلا أن أدار ظهره لها على الفور.

وبدأ في مايو ١٨٢٢ رحلة جديدة إلى إيطاليا، ولكنه ما أن عاد منها حتى مرض في ميونيخ؛ وكانت نتيجة هذا المرض أن فقد حاسة السمع بأذنه اليمنى.



وهناك نلتقى به بعد بضعة أشهر فى مانهليم، ثم نراه مرة أخرى فى سبتمبر سنة ١٨٢٤ فى دريزدين، ويقترح على بروكهاوز ترجمة «تريسترام شاندى» عن الإنجليزية، إذ كان يعد هذا الكتاب أحد أربعة تتربع على عرش الرواية فى الأدب العالمى، ألا وهى: دون كيشوت Don Quijote، ونوفيل هلواز Nouvelle Heloise، فيلهلم مايستر Wilhelm Meister، وتريسترام شاندى Trist am Shandy. كما أعرب عن تفكيره أيضًا فى أن ينقل إلى الألمانية ما كتبه هيوم Hume فى «التاريخ الطبيعى للدين» Natural History of Religion وفى «حوار عن الدين الطبيعى» Dialogues Concerning Natural Religion. وأكد شوبنهاور أن قيمة كل صفحة منها أعلى من مجموع أعمال «هيجل» وهربرت Herbart وشلير ماخر» كلها. ولكن ذلك بقى فى نيته فحسب، ولم يخرج إلى حيز التنفيذ.

وفى مايو ١٨٢٥ عاد إلى برلين ثانية، وبلغ به الضيق أقصاه إثر وقوع خسائر فى أملاكه وإثر فشله من جديد فى المحاضرة؛ وعدم تحقق رغبته فى الانتقال إلى جامعة أخرى، فضلاً عما لقيه عمله من إهمال تام - كل ذلك أوقعه فريسة للغم المقيم والأسى العميق. وكان من الضرورى فى ذلك الوقت أن يلتقى بالمذهب الحسى الفرنسى. وكان - وهو فى دريزدين - قد اقتطف بعض ما كتبه كابانى Cabani عن «التناسب الجسمانى والأخلاقى للإنسان» - Sur les rapports du physique et du moral de l'homme ثم اكتشف فلورنز Flourens لوظائف المخ والمخيخ.

وكان قد تعلم اللغة الأسبانية منذ سنة ١٨٢٥، وقدم لبروكهاوز



ترجمة القواعد الخمسين الأولى للحياة من كتاب بلتازار جراشيان «نبوءة الكف وفن الحكمة الدنيوية» Handorakel und Kunst der Weltklugheit عمل أوحى له بالكثير مما تضمنه كتابه «أصول فى حكمة الحياة» Aphorismen zur Lebensweisheit. ولم يجد شوبنهاور ناشرًا يقبل طبع الترجمة الكبيرة التى قام بها، والتى أراد بها نشر هذا الكتاب فى سنة ١٨٣٢.

وأفرغه ما رآه من انتشار الكوليرا فى برلين، فقرر أن يغادرها نهائياً فى آخر أغسطس ١٨٣١ ليستقر فى فرانكفورت الماين. وفى الطريق فكر فى العودة إلى برلين، ولكنه أثر - بعد زيارته مانهايم - أن يستقر فى فرانكفورت. ولم يترك هذه المدينة طوال الأعوام الثمانية والعشرين الباقية من حياته سوى بضعة أيام.

وبدأ شوبنهاور فيها حياة جديدة راح يتخلص فى أثائها من كل من عرفهم فى حياته الماضية إذ راح يقطعهم بالتدريج. ولم يستبق له سوى القلة من الرفقاء. وفى هذه الحياة الجديدة ظل يمنع نفسه شيئاً فشيئاً من الدخول فى منازعات مع دنيا المحترفين من الفلاسفة الجامعيين، وفى ذلك يقول: «لقد رفعت الحجاب عن الحقيقة على نحو لم يفعله إنسان قط من قبل، ولكنى أود أن أرى ذلك الذى يستطيع أن يدعى أنه وجد مجتمعاً معاصراً له أكثر شقاء من هذا الذى عشت فيه». فقد اعتبره المجتمع خارجاً عليه وصوره أفراداً فى صورة بقيت حتى يومنا هذا أوضح من مؤلفاته ذاتها: فهو سيد متأنق وإن كانت ثيابه على الطراز القديم، يسرع فى مشيته وكلبته أتما Atma تتبعه، ويتحدث أحاديث دموية مصحوبة بالإشارات.



وتنقطع المراسلات وقتاً طويلاً فلا يعرف أحد عنه شيئاً اللهم إلا أنه أخذ يجلس وحده إلى عمله، وأنه واصل عزفه اليومي على الناي، وأنه جعل يقطع المسافات الطويلة مشياً على الأقدام. وطبيعي أنه كان يقضى إلى جانب ذلك وقتاً طويلاً فى مكتبته حيث يجد الراحة النفسية، والنبضات الفكرية، فهو يفضل من الشعراء شكسبير وجيته وكالديرون Calderon وبايرون وبترايك Petrarca وبورنز Burnes وبيرجر Bürger؛ وكان يقرأ آثارهم بلغاتها الأصلية دومًا؛ إذ عود نفسه ألا يقرأ ترجمة ألمانية لكتاب قط اللهم إلا العهد القديم من الكتاب المقدس وبعض الكتب الدينية الأخرى.

وكان يفضل بين الكتب باللغة اللاتينية ما وضعه هوراس Horaz وسينيك Seneca. ولقد ذكرنا من قبل الأربع روايات التى يعتبرها شوبنهاور الكبرى فى عالم الأدب. وكان يفضل من الفلاسفة أفلاطون Platon وكانت Kant ثم يليهما مكيافللى Machiavelli وجيوردانو برونو Giordano Bruno وماليرانش Malebranche وبيكون Bacon وهوبز Hobbes وفولتير Voltaire وهلفيتوس Hel-vetius وروسو Rosseau وهيوم Hume وأخيرًا إلى جانب جراسيان Gracian العظيم وغيره من علماء الأخلاق العظماء من أمثال مونتيني Montaigne ولا روشفوكول La Rochefoucauld ولا بروير La Bru-yère وشامفور Chamfort وفوفينارج Vauvenargue وشافتسبرى Shaftesbury وشنستون Shenston. وكان يعيد قراءة أعمالهم دومًا.

أما فى الفلسفة الألمانية فكان يخصص بالقراءة ليشتنبرج Lichtenberg؛ ولكنه شعر بانجذابه أيضًا إلى تاولر Tauler وبيمه Böhme ومايستر إكهارت Meister Eckhardt.



وتحدث شوبنهاور عن إكهارت فقال: «لقد تولينا جميعاً - بوذا وإكهارت وأنا - نشر تعاليم تقوم على نفس المبادئ؛ فإكهارت، تولاها في الميثولوجيا المسيحية. وفي البوذية نفس الأفكار، ولكنها خالية من هذه الميثولوجيا؛ ومن ثم فهي بسيطة وواضحة بقدر ما يمكن أن يكون الدين واضحاً. أما أنا، فقد كنت واضحاً كل الوضوح».

وكثيراً ما كان شوبنهاور يردد الخطاب الخامس بعد المائة لسينيكا الذى يحتوى على «قواعد لحماية الإنسان» Regeln, sich vor den Menschen zu Sichern وبداية كتاب هوبز «دى كيف» (De Cive) وكتاب «المبدأ» Principe لميكيافللى وخطاب بولونيوس Polonius لـ Laërtes فى هملت Hamlet و«قراءة الكف» لجراشيان، وحكم وأمثال علماء الأخلاق الفرنسيين، وشنستون وكلنجر Klinger.

وفى سنة ١٨٣٦ ظهر المخطوط الصغير عن «الإرادة فى الطبيعة» Ueber den willen in der Natur وهو «موضوع حول المظاهر التى تلقتها من العلوم التجريبية فلسفة المؤلف منذ ظهورها». وقد أضفى عليها شوبنهاور أهمية خاصة إذ أنها تحتوى على جوهر علمه فى حقل ما وراء الطبيعة.

وكان شوبنهاور قد بلغ فى ذلك الوقت من العمر ما يزيد على خمسين عاماً، عندما اعترف به لأول مرة اعترافاً رسمياً، فقد منحته الجمعية الملكية النرويجية للعلوم Die Königlich- Norwegische Gesellschaft der Wissenschaften الميدالية الذهبية الكبرى للبحث



الذى قدمه جوابًا على موضوع المسابقة، وهو: «هل حرية الإرادة الإنسانية يمكن إثباتها من الوعى الذاتى؟».

Lässt sich die freiheit des menschlichen Willens aus dem Selbst - Wussten beweisen?

وجعل شوبنهاور عنوان بحثه «حول حرية الإرادة»:

Ueber die freiheit des willens.

أما الجمعية الملكية الدانمركية للعلوم Die Konigich- Dan- ische Sozietät der Wissenschaften، فكان نصيبه من النجاح معها قليلًا إزاء موضوع Ueber die Grundlage der Moral «مبادئ علم الأخلاق».

وفى سنة ١٨٤١ نشر الكتابين تحت عنوان شامل هو «المشكلتان الأساسيتان فى علم الأخلاق اللتان عولجتا فى بحثين لمسابقتين علميتين».

Die beiden Grundprobleme der Ethik, behandelt in zwei akade mischen preisschriften.

ولا يشير كلا العاملين إلى العمل الرئيسى، ولا يبلغان مبلغه فى المعرفة؛ ولكنهما صارا إضافة مهمة إلى متن الكتاب الرابع؛ إذ «ليس هناك - على الأقل فى عالم المظهر - أية إرادة حرة لأن هذا العالم يخضع لنظرية السببية. ومع ذلك يشعر الإنسان شعورًا أكيدًا بمسئوليته عن أعماله التى تنبع من شخصيته وطابعه.

ومن ثم فإن الطابع هو الذى يرتكب الخطأ الذى لا يرتبط - مع



ذلك - بشيء سوى المظهر من حيث نطقه، أى بالزمان والمكان والسبب. ولكن خلف هذا، المقيد، نجد «الطابع الذكى» بحريته غير المحدودة إلا أنه لا يظهر قط. وهذا الطابع هو ذاتنا، وهو إرادتنا الحقة؛ فهو يحيل أعمالنا لنا، فهى باعتبارها مقيدة - تنبع عندئذ من طابعنا التجريبي إلى جانب ارتباطها بالدوافع. وعلى ذلك، فحريتنا إذن هى وجودنا، ولكنها ليست فى أعمالنا».

وبالرغم من أن هذا العمل أيضًا لم ينل من النجاح ما كان منتظرًا، إلا أنه أوجد - هنا وهناك - بعض المؤيدين لنظرية شوبنهاور.

وفى ٧ مايو ١٨٤٣ كتب شوبنهاور خطابًا إلى بروكهاوز بصدد الجزء الثانى من كتابه «العالم - إرادة وتخيّل». ونُشِبَت فى الصفحة التالية النص الكامل لترجمة الخطاب.



من شوبنهاور إلى ف. أ. بروكهاوز

عن الجزء الثانى من «العالم إرادة وتخيل»

أرجو أن تجد ذلك من الملائم أن أقصدك لأعرض عليك نشر الجزء الثانى من «العالم - إرادة وتخيل» الذى انتهيت منه الآن. وقد يدهشك أنى قدمت هذا فحسب بعد ٢٤ عامًا؛ ولكن ليس من سبب لذلك سوى أنى لم أستطع أن أتمه قبل ذلك.. وإن كنت قد شغلت نفسى حقًا طوال هذه السنوات فى الإعداد - دون هوادة - لهذا الكتاب؛ فالذى يعيش أمدًا طويلًا، إنما ينمو بطيئًا. وهذا الشكل النهائى هو ثمرة الأربعة أعوام الماضية، وضعته عندما أيقنت أنه آن الأوان أن أتمه، إذ قد أتممت - فى هذه الأيام - عامى الخامس والخمسين. وبذلك أكون قد بلغت سنًا تبدأ فيها الحياة مرحلة عدم الاطمئنان، ولكن إن قدر لها أن تستمر وقتًا طويلًا، فإن الوقت الذى تفقد فيه القوى الروحية نشاطها لا بد آت.

ويفضل الجزء الثانى كثيرًا سابقه، كما تفوق الصورة الكاملة تلك التخطيطية السابقة لها - ذلك أنه يشتمل على غنى من الأفكار واكتمال المعرفة مما لا يمكن أن يكون إلا ثمرة الحياة التى انقضت



فى الدراسة والتفكير. وعلى أية حال، فهو خير ما كتبت؛ وسوف يلمع به الجزء الأول نظرًا لأهميته القصوى. وأستطيع الآن أيضًا أن أفسر بحرية أكبر وصراحة أقوى عما كان يمكنى قبل أربعة أعوام؛ ويرجع بعض هذا إلى: أن الزمن يستطيع أن يساعد فعلاً على السير أكثر فى هذه الطريق، ويرجع بعضه إلى أن ما بلغته الآن يسمح لى بأن أكون مستقلاً فى آرائى الحاسمة ومسلكى الحازم.

أما من حيث الحجم فسيكون هذا الجزء - حسب تقديرى - فى مثل حجم الجزء الأول، ولكنى لا أضمن ذلك تمامًا لأن عدم مراعاة مساحة الهامش فى المخطوط يجعل مثل هذا التقدير تقريبًا، وهذا الجزء مقسم إلى خمسين فصلاً، موزعة بين أربعة كتب تماثل تلك التى ظهرت فى الكتاب الأول كإضافات. ولدى الآن رغبة ملحة فى أن تقرر إعادة طبع الجزء الأول فى نفس الوقت لتظهر الطبعة الثانية منه وقد تضاعف حجمها، فإن هذا العمل الذى بدت قيمته وأهميته واضحة بما ذكرته حتى الآن الأصوات الفردية، سوف يجتذب إليه أخيراً أنظار الجمهور بمظهره الجديد الجدير به، وبما انطوى عليه من مزايا. وإننا نرجو أن تكثر حوله مناقشات المثقفين المشهورين الذين عرضوا له - ولا يزالون يعرضون له - بصورة واضحة غير مقنعة. وفى نفس الوقت فإن الشعور بالحاجة إلى الفلسفة قد اشتد إثر ضعف الشعور الدينى، ومن ثم أصبح الاهتمام بها حيويًا وعامًا، وليس هناك ما يشبع هذه الحاجة لأن أعمال أولئك الذين لم يبحثوا فى فلسفاتهم إلا عن الفائدة التى تعود عليهم لن يمكنهم أن يقدموا هذه الفلسفة المطلوبة البتة. ومن ثم، فهذه هى اللحظة الملائمة لتجديد عملى، ليلتقى مع نهاية العمل الجديد ذاته. ولن يكون العمالان ضدي، كما



كانت الحال فى الماضى . وإنى أود أن تعلم التاريخ الحقيقى للأدب حتى تعرف أن جميع الأعمال الحقيقية، وكل الأعمال التى استمتعت فيما بعد بالوجود الدائم - كان نصيبها الإهمال فى أول أمرها كما كان نصيب عملى الأول، بينما ارتفعت الأعمال السيئة والخاطئة إلى القمة. كذلك كانت هذه الأعمال تنتشر فى العالم حتى لم يعد هناك مكان للأعمال الجيدة الصادقة؛ ويستمر الحال على هذا المنوال طويلاً حتى يقدر لها أن ترى النور. وهكذا سيأتى الوقت لأعمالى، ويجب أن يأتى، وكلما تأخر ذلك فسيكون الوميض أشد.

وفى الواقع أن المسألة الآن تنحصر فى أن يوضع أمام العالم عمل له قيمة وأهمية كبيرتان جداً إلى حد أنى لا أجروا أن أقول ذلك هنا - خلف المسرح أى للناس - لأنك لن تستطيع أن تصدقنى. ولكنى أستطيع على الأقل أن أبين لك أنى مهتم بالموضوع فى قرارة نفسى، وليس هناك من دافع ثانوى إلى جانب هذا. فإذا أمكنك أن تقرر الآن نشر طبعة ثانية، فإنى أترك لك كلية أن تقرر إذا ما كنت تدفع لى حقوق التأليف أم لا. صحيح أنك فى الحالة الثانية ستحصل على ثمة جهود حياتى كلها بلا مقابل، ولكنى لم أضع هذا العمل أو أخرجه فى دأب ومثابرة طوال عمرى من أجل المال قط؛ ومن جهة أخرى، فإنى أعلم أن كتاباً بهذا الحجم سيكلفك الكثير من حيث ثمن الورق وأجر الطبع، وهو الأمر الذى لن تعوضه إلا مع مرور الزمن. ولقد شكوت من ضعف الربح، وأكدت لى أنك مزقت كثيراً من النسخ. وإنى لأذكر كل ذلك بشىء من الأسف، وإن كنت أعرف أن سبب هذا لم يكن الكتاب نفسه بل فى عدم أهلية الجمهور وكبار الفلاسفة الجامعيين الذين يقودون الجمهور طبقاً لميولهم الشخصية. وفى



نفس الوقت لا أحب أن تتعرض لخسارة بسببي حتى ولو كنت غنيًا،
ولذا أضع شروطي على نحو لن تكون معها خسارة لك. فإذا كان
الجمهور الذي اكتسبته بكتاباتي خطوة خطوة صغيرًا، فسوف يكبر
هذا الجمهور، وعندئذ يطبع كتابي عدة طبعات - وإن كنت واثقًا من
أنى لن أعيش حتى أراها.

ولقد تقدمت في مراجعة الجزء الثانى المراجعة النهائية إلى
حد كبير بحيث إنه سيكون معدًّا للطبع فى غضون شهر. وفى أثناء
طبع الجزء الثانى سوف أجرى بعض التعديلات الطفيفة فى القسم
الخاص بنقد فلسفة «كانت» فحسب حتى تزداد قيمتها. وبذلك قد
يقتضى الأمر أن تزيد هذه الطبعة عددًا من الصفحات.

(سوف أقوم بهذا العمل فى أثناء طبع الجزء الثانى، كما أنى
سأكتب المقدمة أيضًا).

وفى انتظار ما تقررونه فى هذا الشأن... إلخ.

فرانكفورت فى ٧ مايو ١٨٤٣

آرتور شوبنهاور

وبعد مناقشات طويلة صعبة صدر الجزء الثانى من كتاب «العالم
- إرادة وتخيل». ولم يتلق المؤلف أدنى مكافأة عنه، ويبدو أن الناشر
قد أقنعه فى سنة ١٨٤٦ أن الكتاب لم يكن رابحًا. وعقب أن انتهى
شوبنهاور من الجزء الإضافى لكتاب «العالم - إرادة وتخيل»
قضى ست سنوات فى عمل مستمر أنتج خلالها عدة مقالات عن



الموضوعات التى شغلت ذهنه طوال حياته، ولكنها لم تجد مكاناً فى كتبه السابقة. وأخذ شوبنهاور خلال ثلاثين عاماً يجمع هذه المادة ويعدل فيها ويوسعها ليضمها كتابه «الحواشى والبواقى» Parerga und Paralipomena.

وفى ٢٦ يونيو ١٨٥٠ سأل شوبنهاور ناشره بروكهاوز عما إذا كان مستعداً لنشر الكتاب ثم أضاف قائلاً: «لا أظن أنى سأكتب شيئاً آخر بعد هذا لأنى لا أريد إنجاب أبناء ضعاف فى شيخوختى يتهمون الأب ويقللون من شهرته. وهذا العمل لا تزال هناك حاجة إليه، شأنه فى ذلك شأن سابقه».

ولكن الناشر رفض طبع الكتاب، كذلك لم يجد شوبنهاور الفرصة فى مكان آخر حتى وافقت A.W. Haynsch Buchhandlung مكتبة هاينش على أن تتولى نشره، وتلقى شوبنهاور فى مقابل جميع حقوقه عن هذا الكتاب الذى ضم بين دفتيه الحكمة والفطنة عشر نسخ منه بعد تمام طبعه!!

وقال شوبنهاور: «فى الحقيقة أنى سعيد إذ أرى مولد هذا الطفل الأخير الذى يتم رسالتى فى هذا العالم. وإنى لأشعر الآن حقاً أن عبئاً ثقيلاً قد أزيح عن كاهلى، ظللت أحمله منذ عامى الرابع والعشرين، وشعرت بثقله. ولا يمكن لشخص أن يتخيل مدى ذلك».

وفى نوفمبر ١٨٥١ ظهر الجزءان فى طبعة صدر منها ٧٥٠ نسخة، وكان هذا هو العمل الأول الذى نجح نجاحاً حقيقياً. فقد ضم هذا الكتاب ٣٧ موضوعاً كان أغلبها قصيراً، وكان موضوع «خلاصة حكمة الحياة» Aphorismen zur Lebensweisheit أكبر الموضوعات التى اشتمل عليها الكتاب حجماً.



كذلك كانت «حكمة الحياة» أكثرها حبكة وأهمية، وأروعها أسلوباً. وقد توزعت في ستة فصول، يجمع موضوعات كل فصل منها رابط مشترك. وترتفع «حكمة الحياة» إلى مستوى الأبحاث الفلسفية لسينيكاً ومونتينى وبيكون.

ويرجع هذا التحول الذى طرأ على مصير شوبنهاور إلى كتاب ثاكري Thackeray الذى أسماه «سوق الغرور» Fair of Vanity واشتمل على نقد رائع للأقوال المأثورة، وتحد للذين يدينون بمذهب هيجل. وفى ألمانيا، اكتسب أصدقاء شوبنهاور نفوذاً وأصبح شوبنهاور مشهوراً فجأة. وكان من عادة الفيلسوف أن يقول «لقد وصل النيل إلى القاهرة».

ولم يك شوبنهاور قد شاخ على الاستمتاع بشهرته، بل كان يقرأ بشغف كل المقالات التى كانت تكتب عنه وطلب إلى أصدقائه أن يرسلوا إليه كل تعليق ينشر عنه، مع تحمله - شوبنهاور - تكاليف البريد. وأصبحت فلسفة شوبنهاور موضوع مسابقات أكاديمية، وتسابقت الكليات إلى هذا. وترجمت مقتطفات منها إلى اللغة الفرنسية، وأنصت إيطاليا إليها فى انتباه. وأرسل ريشارد فاجنر - Richard Wagner إلى الفيلسوف فى سنة ١٨٥٤ نسخة من أوبراه «Der Ring der Nibelungen» وقد كتب عليها إهداء «إعجاباً وشكراً»، وتكاثر الأتباع والمريدون من مختلف الطبقات، فزاره مثلاً الشاعر فريد ريش هيل Friedrich Hebbel وراح يؤكد له أنه حقق بهذه الزيارة الأمنية التى كان يحلم بها والتى دفعته إلى المرور بفراנקفورت، إذ زار أكبر الفلاسفة الأحياء فى عصره.



وهكذا بزغ فجر شهرة شوبنهاور فى الوقت الذى كانت حياته تميل إلى الغروب، إذ لم يبق على مسرح الحياة بعد ذلك إلا سبعة أعوام فحسب قضاها كلها فى سعادة ومرح.

وفى عيد ميلاده السبعين انهالت عليه التهانى والأمانى من جميع أنحاء البلاد بل كلها؛ وكاد المتشائم الكبير أن ينقلب متفائلاً!!

وفى هذا الوقت عكف شوبنهاور على إعداد العدة للطبعة الثانية من «الأمثال» Parerga. وفى مايو ١٨٥٨ قال إنه لا يزال يفكر فى ضم كثير من الإضافات الجديدة إلى هذا العمل. وقبيل موته بثلاثة أيام قال: «إنه لأمر مؤسف أن أموت الآن، إذ لا يزال ثمة واجب يتحتم على أدائه، ألا وهو أن أضم إلى هذا العمل إضافات مهمة».

ولم يعثر على مخطوط هذا الكتاب. أما النسخة الخطية الباقية فهى ككل أعمال شوبنهاور تتخللها أوراق بيضاء كان الفيلسوف يكتب عليها باستمرار التعديلات المطولة التى يرى إدخالها، أما التصحيحات الصغيرة، فكان يسجلها على المتن نفسه. وتضم هذه النسخة الخطية عدة تصحيحات وتعديلات، وتحسينات وإضافات، وإشارات إلى كتبه التى يجب الاستعانة بها فى الكتاب. ومن هذه المادة أصدر يوليوس فراونشتيت Julius Frauenstädt - وهو أحد الأدباء الناشرين - فى سنة ١٨٦٢ طبعة جديدة بها زيادات وتحسينات لكتاب شوبنهاور «الحواشى والبواقى».

ولقد كانت «أصول حكمة الحياة» أهم عمل شخصى للفيلسوف؛ فهى الكنز الذى جمعه خلال حياة طويلة؛ حياة غنية بتأملات العالم، غنية بالتخيلات والأحزان، ولكنها غنية أيضاً



بالاستقراءات الخالصة وبالفن. ولن تضيع هذه التجارب، بل ستساعدنا فى فتح أعيننا قائلة: «هذه هى الحياة، أما كل ما يحجب أو يغطى منها فهو كذب وكذب خطير لأنه يؤدى إلى آمال كاذبة وأهداف بعيدة التحقيق وضلال مرير. وهناك طريقة واحدة، هى مواجهة الحقيقة دون خداع - لا للوصول إلى حياة سعيدة، بل إلى حياة محتملة على الأقل». هذه هى روح الكتاب الذى يقدم فيه شوبنهاور النظريات الكبرى للحياة البشرية.

وقد يتساءل البعض:

لماذا لم يسر شوبنهاور نفسه وفق هذا البرنامج الذى رسمه؟

لماذا لم يسر هو نفسه على طريق السمو حتى نهايته؟

ولكن أحدًا لم يشعر بالصراع الشديد بين النظريات وواقع الحياة كما شعر به شوبنهاور، فإن المرء يظل أبعد ما يكون عن الحكم الصحيح إذا صارت نظريته مجرد مجموعة من الأفكار، أو إذا فاته أن يرى فيها «العمل الانتقامى الروحى» للإنسان الذى رفضت الحياة تحقيق رغباته؛ الإنسان شديد التعصب للحقيقة إلى حد لا يرضيه معه مجرد الاكتفاء بالقبول أو الرضوخ. «ذلك... بالنسبة للفنان أو العبقرى لا يكون الضمير الأفضل هو وحده الحى كل الحياة - كما هى الحال مع القديس - بل يجب أن تشترك معه تلك التجريبية والحسية بصورة حية كل الحياة، وهذا هو السبب فى أن العبقرى بهذا الازدواج فى طبيعته - ليس لديه راحة القديس، فوجود العبقرى نوع من الاستشهاد من أجل البشرية... بحيث إنه لا يستطيع أن يقول تمامًا «ليس حكمى نابغًا من هذا العالم»، ولكنه مسوق بدافع قوى



لإنجاز مهمته فى البحث فى هذا العالم عن شىء ما. وبهذه الكلمات دافع الفيلسوف عن نفسه أحسن دفاع.

وتمر الأيام وفى اليوم الحادى والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٦٠، نهض شوبنهاور فى الصباح كعادته واغتسل بالماء البارد. ثم جلس إلى مائدة الإفطار التى تعلوها صورة جيته. وفتحت مدبرة البيت النافذة لتدع نسيم الصباح يدخل الغرفة ويجدد هواءها؛ ثم تركت الحجرة بينما راح شوبنهاور يتناول الطعام.

وما هى إلا لحظات حضر بعدها طبيبه. فلما دخل عليه وجده مضطجعاً على الأريكة إلى الراء. وقد فارق الحياة إثر نوبة نقلته من هذا العالم دون أدنى ألم. وهكذا تحققت أمنيته التى طالما رجاها: أن يموت فى سهولة.

وفى اليوم السادس والعشرين من سبتمبر احتفل رسمياً بدفن آرتور. وقد أحاط برأسه أكلیل من الغار. وزين قبره - تنفيذاً لوصيته - بلوحة من الجرانيت نقش عليها اسمه المجرد:

آرتور شوبنهاور



فيلهلم يوردان

يحكى زيارة الشاعر هيل لشوبنهاور

فى هذه الصفحات، يحكى لنا فيلهلم يوردان، وكان من المترددين على شوبنهاور، حكاية طريقة تصور لنا جانباً من شخصية شوبنهاور.

كان صديقى الشاعر فريدريش هيل عائداً من همبورج إلى فيينا فى ٤ مايو سنة ١٨٥٧، فنزل ضيفاً على لمدة أربع وعشرين ساعة. وأعرب لى عن رغبته فى التعرف على شوبنهاور، فقلت له: «هذا صعب»، وأردفت على الفور قائلاً: «ولكن ربما كان ممكناً».

وطرأت على ذاكرتى للتو كلمات قالها شوبنهاور لى وفى سخرية يشوبها الغضب، وذلك قبل بضعة أشهر: «هناك ملايين من الناس يسиров حقاً على قدمين وبلا ريش، أما الرجل الحقيقى فنادر الوجود». وقلت له فى ذلك الوقت: «إن الأمر ليس سيئاً إلى هذا الحد، بل أنى إذا عثرت على رجل حقيقى فى نظرى، فسأتى به إليك لتفحصه وترى مدى صحة رأيى فيه».

وهكذا التفت إلى هيل، وسألته فجأة سؤالاً مقتضباً: هل أنت رجل؟ فنهض واقفاً عن مقعده، وبالرغم من ابتسامتى، فإنه لم يستطع مقاومة الشعور بالألم؛ إلا أن علامات الغضب زالت عن وجهه



بسرعة عندما فسرت له سبب سؤالى، وقلت له إنى سوف أقدمه - وأنا مرتاح الضمير إلى الفيلسوف - على إنه رجل حقيقى.

وعلى الإفريز الحجرى لنافذة المسكن الذى يقطنه شوبنهاور بالدور الأرضى من البيت المطل على «المنظر الجميل» رأينا غليوناً ينفث الدخان فى الهواء. وأدخلتنا مدبرة البيت العجوز إلى غرفة الاستقبال حيث جلسنا على أريكة عتيقة للغاية، مغطاة بغطاء رمادى، من القطن إلا أن الغطاء لم يكن نظيفاً تماماً؛ وكانت الأريكة صلبة غاية الصلابة. وكانت هذه الأريكة، ومنضدة عادية جداً مغطاة بالمشمع إلى جوار الجدار بين النافذة والباب، وبعض المقاعد هى كل أثاث الغرفة بحيث كانت توحى بأنها غرفة طالب فقير فقراً مدقعاً. وعلى المنضدة جلست كلبة ضخمة بيضاء غير نظيفة إلى حد تدل معه على أنها لم تستحم منذ عدة أسابيع، واكتفت الكلبة بالنظر إلينا دون أن ترفع رأسها. وعلى جدار الغرفة عدة صور تمثل شوبنهاور نفسه. وفى فجوة بالجدار تمثال نصفى لكلب بالألوان الطبيعية، وقد قفز إلى الأمام باسطة ساقيه الأماميتين كأنما يحاول الهرب من مخبأه. ولم أعلم ما إذا كان شوبنهاور قد اشترى هذا التمثال أم أنه هو الذى أوصى بصنعه - وهو صديق الكلاب - أحياء لذكرى الكلب الذى كان عنده قبل هذه الكلبة. وفى ركن من الغرفة كان هناك تمثال مذهب لبوذا جالساً.

وما أن ظهر حكيم فرانكفورت حتى قلت له: «بناء على إذنك، يا سيد شوبنهاور، أقدم لك عينة من ذوى الساقين الذين لا ريش لهم. وإنى واثق من أنه الرجل الحقيقى الذى تريده. والآن، أرجو أن ترى ما إذا كنت على صواب. واسمه فريدريش هيبيل». واکتأب



وجه شوبنهاور استياءً من الدعابة، إلا أن الابتسامة بدأت ترسم على وجهه.

وقال وهو يضع مقعده بجوارنا «أرجو أن تظلا في مكانكما». وانحنى انحناء خفيفة للشاعر وقال: «سأعترف هذه المرة - وهذه المرة فحسب - أن متفائلاً مثل يوردان يمكن أن يكون على صواب بصفة خاصة. فإنه لما يشهد لك بهذه الصفة - على الأقل - تلك المأساة التي كتبتها، والتي قرأتها بشغف شديد، وأظن أن عنوانها هو «مريم المجدلية» Maria Magdalena؛ ففيها عمق وحقيقة - وإن جاء فيها شيء من الخشونة مما جعلها تبدو كما لو كانت حملاً دون حب، وهى أكثر من متشككة ولا تحتل؛ وأن كانت الشخصية الأصلية فى التاريخ أكثر حيوية. ولقد قدمت - فى إطار ضيق - صورة صغيرة مخالفة لصورة هذا العالم الملطخ بالأوحال، والذي لا يربط أفراد هذه الروابط الوثيقة سوى الشر».

وهنا نظر إليّ نظرة جانبية، ثم استمر يقول: «وهى أكثر وضوحاً من الصورة الهزلية الضخمة التى قدمها صديقك يوردان فى «دميورجوس» Demiurgos حيث جمع كثيراً من البراعة بحديثه الملىء بالخزعات كحديث اليهود».

ثم قال وقد انفرج فمه عن ابتسامة عريضة ساخرة: «ولكن قل لى يا سيد هيبيل. كيف استطعت أن تكتب مقدمة غاية فى السوء لعمل غاية فى الروعة كهذا؟».

وصمت هيبيل فلم يرد على هذا السؤال لحظة، إذ كان قد تأثر تأثراً كبيراً عندما أضفى الرجل الكبير المشهور على مأساته ما جعله



يفضلها على «دميور جوس». وكان هيل يري لشعري معنى كبيراً وفضلاً أكبر.

ثم جاء سؤال شوبنهاور - بعد كل هذا الإطراء والمبالغة في الترحيب - جاء كما لو كان قد صب عليه ماء بارداً، فأخرجه عن حالته الطبيعية. وتمتم هيل ببعض كلمات غير مفهومة حول ما قصده بالمقدمة، ثم تقدم خطوة خطوة نحو الإيضاح. وقال إنه آسف إذ لم يستطع أن يجعل المقدمة ترضى ناقدًا كفتًا مثل شوبنهاور، عندما كان يعرض تفسيراته النظرية لهذه الرواية. وإنما يقابل هذا ابتهاجه الشديد باعتراف أكبر الفلاسفة الأحياء في ذلك العصر به ككاتب مسرحي. ثم تكلم هيل عن هذه التفسيرات - وكان ارتبائه لم يبرحه بعد تمامًا - مما جعله يبدو مبالغاً عندما تحدث عن إعجابه بأعمال شوبنهاور. وانتهى من حديثه بتأكيد أعيد تسجيله هنا في صدق:

«سيظل هذا اليوم من أهم أيام حياتي إذ تحققت لي فيه أصدق رغبة دفعتني إلى المرور بفركفورث لتحية العبقري العظيم وجهًا لوجه؛ ذلك العبقري الذي يستطيع الآن أن يعيش أسطع فترة في شروق شهرته وأن كانت قد جاءت متأخرة».

وبعد أن استمع شوبنهاور إلى هذا الثناء - الذي كان يهفو إليه منذ أمد طويل، ويعتقد اعتقادًا جازمًا أنه يستحقه منذ زمن بعيد، قال وعلى فمه ابتسامة ساخرة:

«إن شهرتي، يا سيد هيل، لشيء عجيب. فأنت بلا شك ترتاد المسارح كثيرًا باعتبار أنك شاعر مسرحي وربما حدث أيضًا أنك شهدت مرة عامل النور وقد تأخر في إضاءة أنوار المسرح عندما



رفعت الستار فعلاً. وبين تصفيق الجمهور وضحكه، يسرع عامل تنظيف المسرح - وهو في دهشة واستغراب لما حدث - بالخروج بسرعة تثير الضحك، ليختبئ خلف الكواليس. وهذا ما حدث لي تماماً، فأنا على مسرح يسمى العالم تمثل فيه مهازل مؤسسية، ولا زلت موجوداً في تأخر عرضي، بينما تمثل مهزلة شهرتي».





فيلهم جفيز يلتقى بشو بنهاور

نترك الحديث في هذا الفصل لأحد أصدقاء شو بنهاور المقربين، وهو فيلهلم جفيز، ليحدثنا عن الفيلسوف الكبير كما رآه عن كثب ولمسه عن قرب.

مظهره الخارجي

كان قامته أقل من المتوسطة وبنائه العظمى عريض وقوي، وذلك بالرغم من إنه كان في شبابه نحيف القد. وكان صدره بارزاً بين كتفيه العريضين في نشاط، وظل صوته طوال حياته قوياً بصورة غير عادية. وكانت يده الصغيرتان معبرتين.

ينسدل شعره الأشقر على جبينه كعادة أهل عصره، ويعلو شفته العليا شاربته الأشقر الذي تميل شقوته إلى الحمرة. أما لحيته، فكانت قصيرة. وكانت ألوان الشعر تتفق مع منظره المذهب؛ وإن كان لم يضعه طول الوقت على عينيه، بل تخلى عنه نهائياً بعد أن جاوز الخمسين.

وكان فمه ممتلئ وجميل في شبابه، إلا إنه اتسع في أيام الشيخوخة بعدما فقد أسنانه. وكان أنفه دقيق، حسن المظهر، عريض هند شاربته،



مدبب عند العينين. وكانت العينان ذا محجرين واسعين متباعدين؛ ولذا لم يكن يستطيع أن يستخدم منظاراً عادياً. وكانت عيناه زرقاوين، ولا يتفق حجم العينين مع حجم الهيكل العظمى. وعلاوة على ذلك، فقد كانت جمجمة شوبنهاور عادية، بل أشبه بجمجمة غلام.

وكانت نظرتة تشع لهباً، له من الجمال الروحي، ما يلفت الأنظار إليه - وخاصة في أيام شبابه. وعندما كان في التاسعة والعشرين من عمره، جاءه رجل عجوز، وقال له إنه سيكون عظيماً. وقال له رجل إيطالي، لم تكن له به معرفة البتة «لا بد أنك قمت بعمل عظيم، يا سيدى. صحيح إنى لا أعرف ماذا، ولكنى أراه فى وجهك». وقال له رجل إنجليزى، فى أول وهلة رآه فيها: «يبدو أن لك روحاً غير عادية». وقال رجل فرنسى فجأة: «إننى أود أن أعرف بماذا يفكر فى الآخرين؛ فإننا نبدو - بلا شك - صغار فى عينيه، لأنه كائن من نوع أرقى منا». وصاح ابن إحدى العائلات الإنجليزية التى نزلت فى ضيافة أحد جيران شوبنهاور، وقال: «لا، سوف أجلس هنا، إذ إننى أود أن أرى وجهه السامى المدارك».

لقد حدثت هذه الأمور له أحياناً، إذ كان وجهه يشع بالروح. وعندما كان يصمت، كان يشبه بيتهوفن؛ وإذا ما تحدث، خيل للمرء أنه ماثل أمام فولتير.

وكان مسلكه أرسقراطياً دائماً؛ فقد داوم على الظهور فى ملبسه الكاملة، وعليها معطف أسود، كان يفضلُه، إذ كان يجعل قامته أكثر طولاً، وكانت ربطة عنقه بيضاء وحذائه من اللون الأبيض. ولقد حافظ على الطراز الذى لبسه فى أيام الشباب حتى وفاته، متحدثاً



بذلك التغيرات التى حدثت فى طرزها. فكان المعطف الذى يلبسه يجدد دومًا وفق النموذج القديم. وعلى رأسه، كان يضع قبعة عالية، وفى الصيف قبعة عريضة الحافة. ولاءم بين ثيابه وبين شخصيته، وأخضعها كلية لذوقه.

كيف يتكلم؟

كان يعيش فى فرانكفورت كالغريب، بطريقة أكثر من تلك التى تتبعها فى محطات توقفه السابقة، ولذا تحاشى الاتصال بمريديه المحليين؛ فاتصفت علاقاته بالناس بالبرود فى ذاتها، وأحاط به جو أرسنقراطى، وقامت هوة عريضة تفصل بينه وبين جمهرة الناس، ولم تكن لتمتلىء إلا مع مر الأعوام بالمقربين فحسب.

ولم يكن يشعر بتلك المسائل الصغيرة التى تعرض يومياً للمرء، لتدبير طاحونة التباين الاجتماعى. واقتصرت حياته الاجتماعية على المحادثات فحسب، وتحددت هذه أيضًا بأعلى تغير دائم فى المظهر. وكان فيلسوفًا بفطرته، ومن ثم راح يفلسف كل شىء وفى كل مكان، وبطريقة آلية. وكان تكوين الأفكار لديه مبدأه فى الحياة، الذى كان يشعر فيه بالثقة والراحة الحققة. ولكنه ما كان ليتكلم قط بالعبارات المجردة، بل كانت أحاديثه مختصرة واضحة بسيطة، حية مشرقة كأسلوبه.

ولم يشترك فى الأجواء الخاصة أو الأفراح أو الأحزان أو مباهج الحياة العائلية، كذلك كان يتابع الحياة العامة من الناحية الكلية فحسب. وركز كل قوة أحاديثه على ما كان القدماء يسمونه جدلاً،



أى فن توجيه الحديث فى مجال التفكير الخالص . واستطاع - هو وشلاير ماخر فحسب - أن يستعمله بطريقة مخالفة لذلك الاستعمال السيئ المخزى الذى كان يلجأ إليه الفلاسفة المحدثون .

وتميل طريقته فى الكلام إلى ما يصفه شلاير ماخر بالتفكير الفنى ، أى أنه كان يضع أفكاره - لا إرادياً - فى أثناء النطق بها فى قوالب جمالية ، وهى خاصة لا علاقة لها بأصول البلاغة طبعاً . ولم تك ثمة حاجة به - وهو يعرض كل ما فى نفسه من انطباعات - إلى استعمال المقولات ، ولا كل اللغو المدرسى المجرد . وإنما كان يتكلم بنشاط وحرية مستمداً أقواله من ذلك الخصب الكامن فى التكوين المتناسق لآرائه ، مثله فى ذلك كمثلى المفكر القديم الذى لم يكن يعرف طريقة أخرى للتفكير .

ولم يفته أن يعترف بأن الحقيقة إذا لم تذهب من الفم إلى الأذن ، فلا بد أن تنحى إذا شاءت - أمام آخر مقاييسها : الجمال . ولكن هذا صحيح فيما يختص بعلم الجمال فى أعلى مراتبه . ومن ثم ، فإذا ما سألنا أنفسنا إلى أين تمتد جذور اللذة بأسمى وآخر مراتبها فى الحديث ، لكان علينا أن نقول : إنه فى قرارة الحياة الداخلية للعقل ، عندما تدخل مجال الكلمة التى تبهجنا وترضينا . ويلتقى الحماس العميق مع الجمال الأسمى للحديث فى نقطة البؤرة لدى الشعور ، حيث يكون المرء كله الذى يتكلم ، فربما كان فمه وحده ، أو رأسه ، أو أية دعابة أو انفعال عابر .

كانت هذه هى طريقة شوبنهاور فى الكلام وفى كل ما قاله ابتداء من المشروعية الموضوعية للفرد ، الذى غالباً ما يكون حكمه ، ذو



الجانب الواحد، قوة اقناعية إلى حد غير غير عادى لا يقتصر سحرها على إرضاء الغالبية، إذا ما أذعن المرء للأقل. وقد عرض بنفسه، فى أثناء كلامه، دليلاً مضاداً بارعاً لنظريته عن عدم مشروعية الحياة الفردية؛ فكلما كان الفرد كامل الشخصية، وكلما تعمق فى التفكير، كلما بدا أكثر فردية.

وكنت ما أزال صغيراً، عندما سمعته يتكلم لأول مرة. وجلست إلى جواره إلى المنضدة العادية، ولم أكن أعرف من هو. وأوضح بداية المنطق، وقانون التطابق والتناقض، فراودنى شعور غريب لا يزال ماثلاً أمامى حتى الآن، وهو شعور الإنصات إلى شخص يتكلم عن أ = أ، ورأى فى ملامح وجهه من التعبير، ذلك الذى يرسم على وجه من يحدث حبيبته عن الغرام.

وكان فى كل وقت يستغرق تماماً فيما هو بصدد من حديث، ولم يكن يعبأ بما قد يجرى من حوله. وكان أولئك الذين يجلسون هناك وينفثون دخان سيجارهم ليتصاعد أمام أعينهم، غالباً ما يشعرون بالقلق وهم يرون إلى جانبهم رجلاً لا يبدو له الحديث وسيلة للاسترخاء، بل يراه عملاً، فيثير نفسه بأبسط الأمور كما لو كانت ثروة. وكان يرتج القول عليه، مهما كان حديثه موضوعياً وحماسياً، إذا حدث شىء يجذب انتباهه فى أثناء الكلام، فيصمت على الفور.

وهو موضوعى ودقيق الملاحظة إلى حد غير مألوف قط عند معظم الشاردين من البشر. وأذكر إنى كنت أجلس معه مرة، وأتحدث إليه، فما لبث وجهه أن تغير فجأة، ووجه نظراته إلى كلبه الذى حضر على التو للغرفة جارياً وثبت نظراته علىّ، إذ لم يك الكلب يعرفنى



تمامًا. وظللت صامتًا، وبعد فترة طويلة، عاد إلى الكلام وهو يسألني:
هل رأيت نظرة الحيوان؟!

ولم يكن يهتم بموضوعات الحديث بصفة خاصة؛ فقد كان يعرف كيف يربط على الفور بين أصغر الموضوعات وأشدّها عامية و بين أكثرها أهمية. ولكنه كان يتحاشى الموضوعات الغرامية فحسب. وإذا انزلق فيها، لام نفسه على ذلك فيما بعد؛ لأنها تصطدم بالمبادئ الأولية لحكمته فى الحياة، فكأنه يدخل أرضًا يشتد فيها خطر انشغاله مع الغوغاء.

وبصفة عامة، كانت علامته الميزة، لا ميزته الصغيرة فى اتصالاته بالناس، إنه لم يحاول قط إخفاء شعوره الارستقراطى الداخلى. وفضلاً عن ذلك، فقد كان كل واحد - حتى أولئك الذين كانوا يشعرون نحوه بميل خفى - يخجل لذلك إذ يرى فى هذا انشفاقاً عن بقية طبيعته الأفضل. ولكن هذه القحة الشديدة التى التزم بها، فلازمته فى أحاديثه مع من يكلمه جعلت الشقة الكبيرة بين كل تفكيره ومشاعره والفرد العادى تعزله دومًا وفى كل مناسبة. ومن ثم كانت صلته بالناس بصفة عامة، قصيرة المدى وتنتهى نهاية سريعة مفاجئة. وكان تحفظه يزداد عندما يواجه عقلية عامية، وكان سريع البديهة وذا خبرة وتجربة.. وكان يقابل هذا النوع من سلوك العامة، بما يشوبه من ازدراء، بدمائة الخلق.. ومن ثم كان غالبًا ما يقصر نزاعه على رفقاءه الأذكياء المثقفين.

وكثيرًا ما كان الأذكياء يأسفون أسفًا شديدًا لأن رجلاً له مثل هذه الروح يفقد الحياة؛ ولكنه يعتبر هذه الخسارة كسبًا له إذ يشارك



توماس فون كيمبين^(١) فى الرأى: عندما أكون بين الناس أعود وكأنى أقلهم شأنًا. ولقد قال جيته أن الحديث ينعش أكثر من الضوء، ولو أن عدم الكلام إطلاقاً أفضل من الخوض فى حديث عادى؛ يكون ثلاثة أرباعه مجرد ما يرد على خاطر، فلا يسير الحديث فى خط واحد من التفكير... بل يكون فى الحقيقة كذلك المشى المرهق على حبل مشدود... والقاعدة أن كل حديث - ما لم يكن مع صديق أو بين عشقين - يترك تأثيراً سيئاً فى النفس، ويسبب شيئاً من الانزعاج المعكر للصفاء النفسى. وعلى العكس من ذلك، فإن كل انشغال ذاتى للروح يترك أثراً طيباً فى النفس. فإذا ما تحدثت مع الناس، ألفت آراءهم فى الغالب خطأ أو سطحية أو غير مخلصة.. وإذا اختلفت مع الطبيعة أعطت الطابع الكامل الصادق الواضح لكل شىء تتكلم عنه، وراحت تعبر عنه بلغة روحها. وهى مشغولة دائماً وكلية بأفكارها وملاحظاتها.. فحرية التفكير والكلام تسقط الأهمية الحقيقية والدور الضرورى لإدراكها تماماً... وكان يعتبر الناس أكفاء له... وما كان عنده شىء يعدل فى قيمته الجمع التأملى للروح. وكان أكثر ما يجعله ينكمش من أسواق الحياة الصباحية، هو تشتت الشعور الداخلى وتفرقه إلى الخارج، والضغط الذى تعانى به الناحية الخيرة من ذاتنا تحت وطأة الإرادة وقد امتلأت تماماً بالأغراض السيئة أو عديمة الجدوى. كل ذلك أدى بقابليته الاجتماعية إلى النهاية... ولذا كان يسعد ويبتهج عندما تحتويه من جديد العزلة، أو عندما يلجأ إلى الطبيعة أو الدراسة.



إنسان الغابة

حدث فى سوق الخريف فى سنة ١٨٥٤ بفرنكفورت أمر نادر الحدوث فى أوروبا إذ عرض فى هذه السوق إنسان الغابة Orang Utan (Pithecus satyrus) .. وكان شوبنهاور يزور كل يوم تقريباً ذلك «الذى يبدو كأنه أصل جنسنا البشرى»، الذى طالما يتشوق إلى التعرف به حتى بلغ السبعين من عمره تقريباً. وأوصى أصدقاءه بعدم إضاعة هذه الفرصة، فمن المستحسن أن يذهبوا اليوم لرؤيته بدلاً من الغد، إذ قد يموت فى الغد. وكان يسترعى انتباهه نظرة ذلك الحيوان إذ لم تكن به نزعة للشر، وإن رأسه وجبينه وصدغيه كانت أحسن شكلاً من أدنى جنس من جنسنا البشرى. ولم تكن تصدر عنه تعبيرات حيوانية. وتمثل فى هذا الحيوان الحزين الغريب؛ اللهفة إلى الطبيعة، وهى تشكل الإرادة للمعرفة؛ كما لو كان قد أحب أن يقارن بين نظراته وتلك التى للنبي فى أرضه المحبوبة.

الإنسانك

لا أنسى أبداً صديقى الذى كان معى عندما رأينا ذات مرة صورة ب. رانسيه B.Rancée، «الراهب فى المصيدة» La Trappe؛ فأشاح الصديق بوجهه الذى ارتسم عليه الألم وقال: إن المسألة مسألة كياسة! لقد تظاهر الصديق بأنه لا بد أن يبدو أكثر من راهب مهذب، لا زاهد، ناهيك أن يكون قديساً! ولكن ذلك الذى لا يعرف كيف يفرق بأية وسيلة بين النظرية والحياة، وبين الإدراك والفعل؛ قد يكون رجلاً طيباً، ومتديناً حقيقياً؛ ولكنه ليس فيلسوفاً. ويجب أن يدع فيلسوفنا وشأنه.



والآن لتدبر أولاً الأسس التى تقوم عليها شخصيته وعزلته. إن إنساناً قط لم يشعر - رغم وجوده وسط المجتمع وعلمه بسلوك هذا المجتمع - بمثل شعور الوحدة الذى كان شوبنهاور يعاينه. بل يعد النساك الهنود أكثر قابلية للاجتماع بالناس من شوبنهاور؛ لأن العزلة عند هؤلاء تقوم على دوافع علمية أما هو - فعلى عكس ذلك - تنجم العزلة عنده عن المعرفة. ولذا بلغ هذا الإحساس قوة شديدة فى شعوره مما لا يمكن مقارنته بالانعزال عن العالم الخارجى.

الخوف

أما بالنسبة لصديقنا فقد قامت الطبيعة بأكثر مما ينبغى؛ وذلك بأن عزلت قلبه وملأته بالشكوك والضيق والعنف والكبرياء بقدر لا يمكن أن يتكافأ مع رواقية الفيلسوف. وقد استقر فى أعماقه الخوف الذى ورثه عن أبيه، وأخذ يكافح ضد هذا الخوف طول حياته بكل ما فيه من قوة إرادة، ولكن الخوف كان يتغلب عليه من وقت إلى آخر حتى فى مناسبات تافهة، إلى حد أنه كان يتمثل أمام عينيه كارثة لا يمكن حدوثها وكأنها حقيقة واقعة. ولقد زاد خياله الخصب من هذه القدرة أحياناً إلى حد يصعب تصديقه. وعندما كان فى السادسة من عمره، عاد أبواه من نزهة لهما فوجداه فى حالة يأس تام لأنه اعتقد فجأة أنهما هجراه إلى الأبد. وفى شبابه وقع فريسة لتخيلات عن الأمراض والمشاجرات مع الآخرين.

وعندما اندلعت نيران الحرب فى ١٨١٣ خيل له إنه سيضغط عليه من أجل الخدمة العسكرية. وانتزعه الخوف من الجدرى من نابولى والخوف من الكوليرا من برلين. وعندما كان فى فيرونا استبد



به الاعتقاد بأنه قد تناول مادة سامة. واشتد عليه الشعور بالخوف وهو يترك مانهايم دون أى سبب. واستمر بضع سنوات تراوده المخاوف بشأن القضية حول موضوع برلين التى ذكرناها من قبل، وفقدان ملكه، والمنازعات حول تقسيم الميراث بينه وبين أمه، وكان إذ سمع ضوضاء فى الليل نهض فى فزع من فراشه، وأمسك سيفه ومسده الذى كان محشواً دائماً. كما كان فى قلق نفسى دائم دون ما سبب، مما كان يجعله يرى الأخطار بل يأخذ فى البحث عنها وأن لم يكن منها شىء قط. وزادت هذه فى التصرفات غير الملائمة تجاهه... وأحاطت تماماً بكل اتصالاته مع الناس.

وقد أخفى أشياءه القيمة، على نحو أن بعضها رغم التعليمات التى وضعها باللغة اللاتينية للدلالة عليه فى وصيته، كان من الصعب العثور عليها. ولم يكن يكتب أى شىء خاص بأملأكه أو تدبيره المنزلى أو شئونه الخاصة باللغة الألمانية؛ بل كان يكتب حساباته بعد عودته من إيطاليا باللغة الإنجليزية، أما الأمور المهمة، فكان يكتب ملاحظاته عنها باللغة اللاتينية أو اليونانية. وليحمى نفسه من اللصوص، اختار إشارات تبعث على الضيق، واحتفظ بأسراره على صورة تركيبات الأدوية السرية، كما كان يكتب أرباح أوراقه المالية بصفة خاصة بالحروف القديمة وفى الكراسات الموسيقية. وكان يضع القطع الذهبية كالرقوبة (بيض العش) تحت المحبرة التى فى مكتبه. وما كان ليأتمن موسى الحلاق؛ وكان يجعل معه دائماً كوباً من الجلد حتى لا يتعرض للعدوى حينما يشرب فى الأماكن العامة. وكان يحفظ غليونه بعد استخدامه فى حرص شديد. (وقد نجد بعض الصفات المشابهة مما لا يتصورها العقل لدى بعض العظماء، ولدى



«كانت» بصفة خاصة). وكان يخشى أن يشبهه فى وفاته، ولذا أوصى بأن يدفن عند وفاته فى قبر مفتوح لمدة أطول من المعتاد.

احتقاره للناس

كان يقارن معظم الناس بالبندق، الذى يبدو كأنه بندق حقيقى، وفى الحقيقة لا يمكن أكله.. فالناس العاديون يبدون كالبشر؛ وما رأيت أكثر منهم شبهًا بالبشر. والكثير منهم خليط من الخبث والغباء، مما يصعب أن يختلف معهم كثيرًا. وأكثر الأوصاف انطباقًا عليهم هو الوصف الإنجليزى «وغد كئيب». وقد كتب جيته فى مفكراتى معبرًا عن رأيه، فقال:

إذا كنت تريد أن تستمتع بقيمتك،

فعليك أن تضيفى على العالم قيمته

«ولكنى أفضل تفكير شمفور إذ يقول: «إن الأفضل ترك الناس كما هم، وعدم أخذهم بما ليسوا عليه». وإذا ما فكر بالفرنسية، كان يقول: Rien de siriche qu'un grand soi- meme! «ليس الغنى شىء كعظمة الذات». وكان كل اتصال له بالناس فى أيام نضجه ملوث وذليل. فقد كان قائمًا على أساس أن أحكم الناس هو الذى يتصل بهم طوال حياته بقدر أقل من اتصال سواه بهم. ولقد أبدى جيته أسفه فى -ايكرمان- على عكس ذلك. ويجب على المرء أن يعتقد فى قرارة نفسه، وأن يبقى هذا اعتقادًا مائلًا أمامه، أنه جاء إلى هذا العالم، الذى تسكنه كائنات تعسة خلقياً وعقلياً لا ينتمى إليها المرء، مما يوجب عليه أن يتحاشاها، وعليه أن ينظر إليها ويفعل كما يفعل البراهمة مع السودرا والباريا.



الزولية^(١)

كانت أهمية الرجل العقلى والرجل الخالد فيه عظيمة إلى درجة تفوق أهمية الرجل الفرد فيه إلى حد كبير، تختفى معه على الفور أية أحزان شخصية مهما كانت كبيرة، إذا ما استثيرت فكرة فلسفية؛ لأن مثل هذه الفكرة الفلسفية غالبًا ما تكون بالنسبة له غاية فى الجدية، وما عداها يكون على العكس من ذلك. وهذه هى علامة نبل الطبيعة وحريتها.. ويتألف حظ الرجل العادى من التغير الذى يحدث بين العمل والمتعة، فبالنسبة له يكون كلاهما على العكس من ذلك أمرًا واحدًا. ولذا كانت حياة الناس الذين ينتمون إلى نفس نوعه زولية منطقية. ويصير رسل الحقيقة إلى البشرية، أمثاله، بعد أن يفهموا أنفسهم - أناسًا عاديين إلى جانب رسالتهم، مثلهم فى هذا مثل المبشرين فى الصين الذين يأخون الصينيين. والرجل الذى مثله - طالما ظل شابًا - يشعر أنه غريب عن ظروف الحياة شأنه فى ذلك شأن من يرتدى ثيابًا لا تلائمهم.

الوهج الخامد

وهناك ما هو أكثر من الاعتراف بقوة روحه، وهو التحرر التدريجى من سلطان «الإرادة» الذى بدأ مع اكتفائه عند بداية الشيخوخة. وليس سوى رجل مثله، ذلك الذى له هذا النشاط غير العادى فى المزاج، وله هذه السيطرة غير الطبيعية على الرغبات، وله فى نفس الوقت هذا النمو المذهل لحياته العقلية.. يمكن أن يشعر بالتخلص النهائى من القوة الشيطانية للحساسية. وفى هذا الموضوع، وهو فم الشيخ

(١) الزولية مسرحية يمثلها شخص واحد.



الذى امتلأ بالأفكار السامية والمشاعر التى تمس الأعماق. ذلك، الذى تتجمع نظريته فى سلبية الإرادة؛ ذلك، الذى يعتبر فى تهور أن معرفة المرء نفسه هى الأنقى والأنبى، وإنها الأعلى والأخيرة، وأنه قد مارسها وأثنى عليها؛ ذلك، الذى يرى وهو يتسم تلك النار تنطفئ فى بطنه بعد أن اشتعلت فى عروقه أمدًا طويلًا وتصبح فقد الرغبات لديه أعلى درجات اللذة. لقد قدر قبل كل شىء أنه سعيد مع سوفوكليس لأنه يستبعد نفسه من فخ أفروديت، إذ لا تقف مباحج الشباب عنده موقف الضعف. وكم يشكو الشاعر هيدرلين Höderlin فى منظومته سير الحياة Lebenslauf «من أن الحب يجذبنا جميعًا إلى أسفل»، لأنه يمثل الرجل الذى تعمل فيه «إرادة الحياة» بقوة فائقة كثيفة.. وتنهى مع لورد بايرون دومًا على أنه مما يصعب عليه تمامًا أن ينفصل عن النساء، بينما يجد الانفصال عن الرجل غاية فى السهولة. وكلما نظرت إلى الرجال كلما قل حبى لهم، فياليتنى أستطيع أن أقول ذلك عن النساء أيضًا حتى يكون ذلك أفضل.. (بايرون، رسائل ومذكرات لثور Moore Th. ج ١، ص ٤٩٩).

الاقتصاد

لما كان لديه حظ فى أن يتمتع بالحرية، وحظ فى رؤية الفجر، والقدرة على أن يقول: هذا لى! فقد فضل كل هذا على ما عداه، إذ اتفق مع شينستون فى رأى بأن الحرية أفضل مما عداها. وكان معقولًا ومقتصدًا فأدار أملاكه طبقًا لمبدأ شيشرون Cicero الذى يقول بأن الاقتصاد هو إيجاد مصدر كبير للدخل -Magnum vecti- gal parsimonia. وكان الإسراف فى نظره أرذل من التقتير؛ ولكن



من الخطأ أن يعتبر بخيلاً. ولم يكن يراعى نفسه فحسب، عندما كان لا يدع شيئاً يفوته؛ بل كان يفعل الخير كذلك بشكل غير طبيعي بالنسبة لظروفه لإشباع الحاجات الغربية - وخاصة فى الأحداث - وما كان ليدع فرصة تمر دون أن يساهم بنصيبه؛ ولم يكن يخشى القيام بتضحيات أكبر إذا كان الأمر يتطلب مساعدة. ولقد ظل عدة أعوام يساعد أقرباءه الفقراء، كما جعل وريثه الوحيد منظمة خيرية.

اللغة الألمانية

ولم يكن قد تخلص من شىء قدر تخلصه من الكبرياء القومية، وإن كان قد أوضح أن وطنيته محدودة باللغة الألمانية التى صارت أذنه فى أيام الشباب - كما قال من قبل - غير معتادة عليها طوال الستين اللتين أقامهما فى فرنسا، بحيث اضطر إلى إعادة تعلمها مرة أخرى. وبدت له اللغة غريبة وغير متناسقة، بل وجد فيها صعوبة شديدة فى ذلك الوقت، ولكنها أثارت له هذا السبب فدفعته قوتها وروعتها إلى الكتابة وخاصة عندما راح يقرأ أشعار جيته التى لا يمكن نقلها. أما ما عدا ذلك، فقد كان يشعر بالخجل - شأنه فى ذلك شأن كثير من العظماء ممن سبقوه - إذ يكون ألمانيا ثم يسمح لنفسه بأن يفكر فى تفضيل أصل أسلافه الهولنديين. وهكذا كان الرجل النشط فيه يخالفه فى الزهو وفى التقليد حيث كان دومًا يلوم الآخرين بلا هوادة على ما قد يغض البصر عنه فى الأمم الأخرى أو قد يجد أنه ممكن السكوت عليه.

ولقد كانت النظرة العالمية للفيلسوف، بعيدة عن هذه الوطنية. ولم يكن من الممكن إثارتة بالحديث فى السياسة، طالما ظل موضوع



الحديث قاصراً عليها، وكانت الموضوعية المفيدة هي التي سمت به في نظريته العريضة إلى مصالح العصر، وجعلت حكمه يبدو وله ما يبرره - وإن كان من جانب واحد.

الصباح

كان «كانت» هو مثله العام في الحياة الخارجية، ولكن ليس في كل شيء؛ إذ كان لا يرى من بين العادات العديدة لهذا الرجل العظيم، سوى الاعتبار المفروض للتكوين الضعيف، بينما كان هو نفسه «الحسن النشأة الموفور النعمة» كانت له ثقة أكبر في نفسه.

ولم يكن مغرمًا بالتبكير في اليقظة، حيث إن النوم الطويل ضروري للمفكرين؛ فكان يستمتع في شيخوخته بنوم عميق. ومع ذلك، فقد كان يفضل أن يكون عنيماً مع نفسه، فيقصر ساعات الصباح الغالية وأن ظل يكثر من النوم. فكان يبرح فراشه بين الساعة السابعة أو الثامنة صباحاً سواء في الصيف أو الشتاء، ويغتسل بالماء البارد مستعملاً أسفنجة ضخمة في غسيل القسم العلوي من جسمه، وإلى جانب هذا، وطبقاً لما يقتضيه ذلك الفصل من السنة، كان يستحم بالماء البارد أو الساخن. وكان يعتنى بعينه، وهما أعلى ما في أعضائه عنده، عناية خاصة؛ إذ كان يغسلهما وهما مفتوحتان عدة مرات حيث كان يعتقد أن هذه الطريقة تقوى أعصاب العينين تماماً. وظل حتى سن متأخرة يضع على عينيه نظاراً، أما عندما لم تعد به حاجة إلى «القيام بغزوات جديدة أو يستخدم عينيه لفترات طويلة»، فقد نحاه جانباً واكتفى باستخدام منظار يدوي مكبر. وكانت عادة كبس



عدسته المفردة أمام إحدى العينين، بالنسبة له، دليلاً خاصاً على سخف ذوى الرجلين!

وكان يجلس فى ذلك الوقت لشرب القهوة التى كان يعدها بنفسه. وكان قد أصدر تعليماته إلى مدبرة بيته بألا تدعه يراها فى ساعات الصباح الأولى؛ ذلك حتى يستطيع تركيز أفكاره فى تلك الساعات حيث يكون المخ مركزاً للغاية، وأشبه بألة تبدأ فى الدوران للتو - أما القول بأن الكزنדר فون هومبولت Alexander v. Humboldt كان يستعمل هذه الساعات الثمينة من النهار فى كتابة الخطابات والأعمال التافهة الأخرى، بينما كان على العكس من ذلك يعمل بالليل بعد عودته من الديوان.. كان ذلك بالنسبة له إشارة عن الأعمال المتأخرة لهذا الرجل الذى وضعوه بالفعل بين الآلهة وهو ما زال حياً. وهذا النقص فى القدرة البشرية على الإدراك كان يصوره فى مثل هذه الفرص مخالفاً جداً للألوان الأوضح.

وكان يقضى ساعات ما قبل الظهر فى هذا التركيز الروحى. وفى السنوات الأخيرة كان يقبل زواره فى النصف الثانى من الساعات الصباحية. وكان استغراقه فى الحديث ينسيه مرور الوقت، فكانت مدبرة المنزل تظهر إذا ما انتصف النهار وتعطيه إشارة بانتهاء الزيارة. وقبل أن يتزين، اعتاد أن يعزف ساعة على الناي.

الظهر وبعد الظهر

وكان يذهب إلى المنضدة فى تمام الساعة الواحدة بعد الظهر. وظل طوال حياته معتمداً على مائدة المطعم إلا أنه لم يستطع أن يعود نفسه الجوانب القاتمة فيه إذ كان يكره للغاية ضوضاء العملاء



الآخرين، وصخب الأطباق، وضجيج الخدم؛ ولكن شدة هذه الضوضاء خفت عندما ثقل سمعه فى النهاية.

وكانت له شهية مفتوحة جداً، ولكنه لم يرد أن يعرف شيئاً عن ماكروبيوتيك كورنارو Makroboitik Cornaro. وكان كل من كانت وجيته يشبهونه فى أنهما كانا أكلاّن كثيراً وأنهما عاشا طويلاً. وكانت الحكمة الأثيرة عنده عن الطعام هى: الموازنة بين استنفاد الجهود وتعويضها. ومن ثم، لم يفته أن يقوم دائماً بالحركة.

وقد ظل يشعر بنقص رفاق المائدة المناسبين. ولذا كان يعود إلى بيته فور تناول طعامه، فيشرب القهوة ويغفو ساعة. ويشغل القسم الأول من ساعات العصر بقراءة الكتب الخفيفة. فإذا قارب المساء اصطحب كلبه، وخرج للنزهة فى الهواء الطلق. وكان يختار عادة لهذه النزهة الطرق الريفية المنعزلة؛ أما إذا كان الجو سيئاً فكان يقصر نزهته على الشوارع المحيطة بالمدينة. وكانت جولته هذه مليئة بالمرونة والسرعة حتى السنين الأخيرة من حياته، وبقي جسمه بهذه الرياضة فى حركة دائمة. واعتاد أن يحمل معه عصا خيزران كثيفة وقصيرة، يلمس بها سطح الأرض من حين إلى آخر. وإذا ما بلغ ظاهر المدينة أشعل سيجاراً خفيفاً كان لا يدخن منه إلا النصف فحسب. وكان أحياناً يقف، ويتطلع حوله، ثم يعود إلى سيره السريع، بينما تصدر عنه أصوات غير مفهومة - ولقد جعلته هذه العادة من التعبير فى صوت جهورى عن إحساساته الدموية الشديدة دون أن يخفف من حدة الصوت.. جعلته موضع شك المارة.



ولكنه ما كان يلتفت يميناً أو يساراً، بل كان يحتاج إلى منظاره لتقدير المسافات تقديرًا صحيحًا. كذلك ما قيل من أنه لم يكن يرد التحية ليس صحيحًا؛ فعلى العكس من ذلك، كان يرد التحية دون أن يرفع عينيه إلى ذلك الذى يحييه. أما الغرباء عنه تمامًا، فكان يرفع قبعته وينحنى لهم كل الانحناء تمشيًا مع المبدأ الذى رسمه لنفسه «أعط العالم حقه بالانحناء».

وكان يفضل أن يبقى وحده فى هذه الجولات، لأنه كان يرى مع «كانت» أن أفضل طريقة لاستنشاق الهواء هى إغلاق الفم؛ فضلًا عن أنه كان يريد أن يكون اتصاله بالطبيعة اتصالًا لا يقلقه أو يعطله شيء إذ كان يحس وهو مع الطبيعة أنه مع «الحقيقة العامة» التى تدعه فى مأمن من تلك «الخدع» التى تسود المجتمع البشرى.

فاجنر وبيتهوفن

رفض «موسيقى المستقبل» رفضًا باتًا بعد أن سمع «الهولندى الطائر». وبالرغم من إنه كان يعتبر ريشارد فاجنر من المعجبين به إعجابًا خاصًا، فإنه لخص حكمه أخيرًا فى هذه العبارة «إن فاجنر لا يعرف، ما هى الموسيقى».

وكان شوبنهاور يتذوق الموسيقى ويتغذى بها حتى أنه لم يهملها قط طوال حياته. فعندما كان يسمع سيمفونيات بيتهوفن، يجلس بلا حراك وهو مغمض العينين منذ البداية حتى النهاية. ثم يخرج مباشرة من قاعة الموسيقى، حتى لا تضعف الانطباعات بما قد يسمعه بعد ذلك من قطع موسيقية.



التوفيق

كان أثاثه المنزلى غاية فى البساطة. ولم يشتر أثاثًا خاصًا إلا بعد تجاوزه سن الخمسين. ولم يكن عنده إلا إحساس قليل بالراحة أو الزخرفة الجمالية فى الجو المحيط به. وكانت غرفته تترك انطباعات من التوافق بحيث لا يفكر المرء فى أن يبقى طويلًا، فقد كان مسكن ضيف غريب عن هذه الأرض. وقبل وفاته بعام واحد انتقل إلى مسكن جديد بالمنزل رقم ١٦ بشارع المنظر الجميل، حيث كانت غرفة مكتبه من الاتساع بحيث ضمت كل مكتبته. ومن ثم، بدت له دافئة متألفة.

وعلى منضدة جانبية من المرممر فى أحد أركان الغرفة. التى شهدت وفاته أيضًا، وقف تمثال حقيقى مذهب لبوذا. وعلى مكتبه تمثال نصفى لـ «كانت»، وفوق الأريكة صورة زيتية لجيته، وعلى بقية الجدران صور كانت وشكسبير وديكارت وكلوديوس وصور بعض أسرته، وصورته هو فى شبابه، وصوره فى مراحل عمره المختلفة، تحيط بها صور الكلاب العديدة التى اقتناها طوال حياته: فوليت وريدينجر وغيرهما. وأمام الأريكة منضدة مستديرة أثرية، وإلى جوار هذه المنضدة وعلى فراء دب أسود يجلس كلبه. وفضلاً عن اسمها الدنيوى كان يطلق عليها اسمًا خفيًا هو «أتما» أى روح العالم، لا يستعمله إلا المقربون.

الشيخ المسن

كيف تأمل فى طفولته هذه الحياة، وكله دهشة لسرعة مرور الأيام، وهذا العالم الذى يحافظ الجوع الجنس على روابط أفرادها؟!



وكيف عارض وهو فى شبابه الرغبة الجنسية خجلاً، مخفياً عالمه الداخلى؟! وكيف وقف فى رجولته يعارضها، فى عناد وغبابة - مبتعداً عن جمهرة الناس، ومتحرراً من الأعمال المربحة؟! وكيف وقف فى شيخوخته يتأمل فى عمق ما تحته وعينه التى تتقد ناراً، تبرد وهو مستسلم بكبرياء؟!!

كل هذا يستطيع المرء أن يتبينه: العزلة الحزينة، والته الذى لا حد له فى كيانه، وسخريته الصامتة، وشدة كبريائه التى أحاط بها قلبه وكأنها درع، والتى كانت تهدد بتجميد نفس ذلك القلب؛ كى تتضح مكانة الرجل وتحفظ لنفسه الطابع الجدير به أمام الناس.

آخر حديث فى سبتمبر ١٨٦٠

فى مساء ذلك اليوم، تحدثت معه للمرة الأخيرة. كان جالساً على الأريكة ويشكو من تقطع ضربات قلبه، ولم يكن ثمة شىء ناقص فى قوة صوته المعتادة. وراح يقرأ كتاب دزرائيلى Disraeli «عجائب الأدب» Curiosities of Literature الذى أتاح له تسلية خفيفة، وكان قد فتح الكتاب عند صفحة المؤلفين الذين حطمهم الناشرون. وقال باسمًا: «لقد أوصلونى أنا أيضاً إلى هذا تقريباً». ولم يكن يهمه قط أن الدود سيأكل جثمانه بعد موته ولكنه كان يفكر فى رعب: كيف ستتخمر روحه بين أيدي أساتذة الجامعة. وكان يسأل عن أحدث أنباء السياسة والأدب، وعبر عن أمله فى أن تستطيع إيطاليا أن تسترد وحدتها؛ ولكنه سلم بضرورة استبدال إيطاليا القديمة بأخرى جديدة.

وفىما يختص بأبناء الأدب، فقد تناول تعليقات بادر Baader على سان Saint Martin مارتن للطباعة وعلم على الأماكن التى يذكره فيها



الناشر. ثم قال لى: «ولكن هل تستطيع أن تقرأ مثل هذا؟». وكان يشير إلى صفحة ٨٦ التى فتحت بالمصادفة، «إن الإنسان يعدل ويوجه إرادته، التى يعتبرها مجرد نفس، إذا تلقاها، ويتلقاها إذا هو أعطها».

«وهناك فلاسفة كثيرون مجردون وماديون، نظريون وعمليون، ولكن بادر لا يحتمل». وذكرته أن بادر كان قد أوصى تلاميذه فى سنة ١٨٢٨ وفى سنة ١٨٣٦ بدراسة كتبه، وبالرغم من الاختلافات الجوهرية بين نوعى التفكير لديهما، وأنه فى أثناء محاضراته عن يعقوب بيمة اعترف بأن نظريات شوبنهاور تفضل آراء بيمة «فهو فى عمله وإخلاصه يتميز عن كثير من الفلاسفة الآخرين المعاصرين، ممن يكتبون بنفس الروح» (مجموعة أعمال فرانتس فون بادر، مجلد ٣، صفحة ٣٦٦)، فأجاب: «هذا حق، فأنى أذكر أنه أحسن الكلام عنى، ولكنى لا أستطيع قبوله». فإن الفلسفة التى يمكن قبولها من بيمة وفى عصره، لا يمكن - فى الحقيقة - أن تحتل فى القرن التاسع عشر. وفى هذا تفسير للحكم بفرض مثل هذه الروح القوية. وأمسى الليل فى أثناء الحديث، وأشعلت مدبرة المنزل الشموع، لأنه لم يكن يحب أن يحتجب ضوء المصباح. واستطعت أن استمتع بتلك النظرة المتألقة والتى لم يكن فيها ما يشير قط إلى مرض أو شيخوخة. وقال إنه لمن التعاسة أن يموت الآن، إذ لا تزال ثمة إضافات مهمة يريد أن يضمها إلى «الحواشى». وأخذ يتكلم عن تاريخ هذا الكتاب الذى جعله معروفاً فى دوائر شاسعة.

الشك والموت

وكان فى هذه التأملات، يرق ويشد حماساً؛ كما اعتدت أن أراه



دومًا. ولم أتركه بمحض إرادتى الخالصة، وإنما أردت أن يدخر قواه. ولم يخالطنى أى شعور بأنى أنظر وقتئذ إلى عيني الرجل لآخر مرة، أو أنى أضغط على يده للمرة الأخيرة. وقال إنه من المفيد له فحسب أن يفنى فى العدم المطلق؛ ولكن الموت - للأسف - لا يتيح الفرصة لذلك. فلا مجال إلا أن تسير، كما تود، وهكذا كانت له إحساسات فكرية صافية على الأقل.

وفى اليوم التالى، منعت من رؤيته. ففى ذلك اليوم، العشرين من شهر سبتمبر، أصابته نوبة قلبية بعد أن نهض من فراشه، حتى أنه وقع على الأرض وأصيب فى جبينه. ولكنه فى أثناء النهار شعر بتحسّن صحته ثانية، كذلك مرت الليلة التالية بسلام. ونهض فى الصباح كعادته، واغتسل بالماء البارد، ثم جلس إلى المائدة للإفطار. وكانت مدبرة البيت قد فتحت للتو النافذة لتدع هواء الصباح يدخل إلى الغرفة ثم تركته. وبعد لحظات دخل الطبيب فوجده ميتًا، مضطجعًا إلى الوراء، وهو جالس إلى زاوية من الأريكة؛ وكانت قد جاءت نوبة رئوية فرفعته بلا ألم من هذا العالم، ولم يظهر على ملامحه تشويه، أو أثر لعذاب. لقد كان يرجو دائمًا أن يموت بسهولة، ولا شك أن ذلك الذى عاش وحيدًا طوال حياته، يفهم جيدًا مسألة الوحدة هذه أكثر مما يفهمها سواه.

وطبقًا للوصية الأخيرة، التى كتبها وسلمنى إياها، لم تشرح الجثة، إذ عندما سألته إذا ما كان يرغب فى منع ذلك؟ قال بعد تفكير قصير: «نعم» فإذا لم يعرفوا شيئًا قبل ذلك، فلن يعرفوا شيئًا بعد ذلك».



وأحيط الرأس بأكليل من الغار، فى اليوم الثالث والعشرين من
سبتمبر، وعرض الجسد الميت - وفق وصيته - فى حجرة يخيم عليها
سكون تام. ولم يحتفل بدفنه رسمياً إلا فى اليوم السادس والعشرين
من سبتمبر ١٨٦٠.



وصية شوبنهاور

رقم ٤٣ لسنة ١٨٦٠

أنا الموقع على هذا دكتور الفلسفة آر تور شوبنهاور من دانتسيج والذي لم يتزوج قط وليس له من صلبه أقارب البتة، أوصى بموجب وصيتي هذه، بما يجب أن يفعل بممتلكاتي بعد وفاتي.

يكون وريثي الوحيد المنظمة التي أسست في برلين لمساعدة الجنود البروسيين الذين أصيبوا بالعجز، والمجاهدين الذين سقطوا صرعى في القتال الذي دار في ١٨٤٨، ١٨٤٩ في سبيل المحافظة وإعادة النظام إلى ألمانيا. وفي حالة ما إذا لم تكن هذه المنظمة موجودة عند وفاتي، فإنني أعين بدلاً منها مستشفى العجزة من الجنود في برلين وريثاً وحيداً لي. كذلك يعين هذا المستشفى أيضاً وريثاً في حالة ما إذا كانت القدرة على توريث المنظمة سالفة الذكر موضع شك. ولكن يعين المستشفى المخصص للجنود العجزة وريثاً أيضاً في حالة ما إذا كانت الأحقية في التوريث مشكوكاً فيها، بالنسبة لمنظمة المساعدة السالفة الذكر، حيث يكون المستشفى المخصص للجنود العجزة مكلفاً بتقديم الممتلكات الموروثة لهذه المنظمة حتى تستخدم في أغراضها.



ولكن يخصم قبل ذلك من ممتلكاتي ما يخص الوارثين
الآتي ذكرهم بعد، دون أن يتأثر ذلك بالاستقطاعات الخاصة
بـ Falcidiscnen Quart أو أية استقطاعات أخرى.

أولاً: ابن خالي كارل جوتفريت تيتس Cari Gottfried Tietz الذي
مات في سنة ١٨٣٣ في دانتسيج عن ثلاثة أبناء أحياء هم:

١ - كارولين أميلي واسمها بعد الزواج جريشوف Caroline
Emilie verechelichte Grischow

٢ - كارل أوجست تيتس Carl August Tietz وهو الآن صف
ضابط متطوع.

٣ - يوليانه آمالي تيتس Juliane Amalie Tietz

أترك لهؤلاء الثلاثة معاً على الشيوع تسعى أراضي شوبنهاور،
التي املكها في أورا Ohra قرب دانتسيج، ومسجلة تحت رقم ١٨
في الرهن العقاري. وكل واحد من هؤلاء الورثة لا بد أن يقدم وثائق
زواجه طبقاً لعائلته، فإذا لم توجد بعض هذه الوثائق، تقارن بعضها
ببعض على ضوء هذه الوصية. وإذا لم يكن أحد من هؤلاء الورثة
حيّاً، أو من يحلون محله، انتقلت أنصبتهم إلى وريثي الوحيد.

ثانياً: أترك لهؤلاء الثلاثة الذين ذكرتهم ألف «تالر» بروسى لكل
منهم، فإذا كان واحد فقط هو الذى بقى حيّاً أخذ نصيبى أخويه،
ومع ذلك فهذه الوصية شخصية بحتة ولا تسرى على أعقابهم، أو
أى ورثة آخرين. فإذا كان الثلاثة جميعاً قد ماتوا قبل وفاتي تذهب
أنصبتهم إلى وريثي الوحيد.



ثالثاً: فى حالة ما إذا كانت أم هؤلاء الأولاد - أرملة أ. س. تيتس،
(والتى كانت أرملة رايتش Reitsch سابقاً) والتى ولدت باسم مايير
Meier - حية عند وفاتى، فإنى أترك لها خمسمائة تالر بروسى وهى
وصية شخصية بحتة، لا تؤول إلى أحد من عقبها أو ورثتها الآخرين.
وفى حالة ما إذا كانت قد ماتت يذهب نصيبها إلى وريشى الوحيد.

رابعاً: للخادمة التى تعمل فى خدمتى الآن مرجريت شنيب
Margarette Schnepf من هيدلبرج أترك فى حالة ما إذا كانت لا تزال
فى خدمتى عند وفاتى ما يأتى:

- كل ما لدى من فضة وثيابى الخارجية والداخلية وكل ما فى بيتى
من أثاث وفراش ماعدا مكتبى.

- معاشاً سنوياً قدره ١٠٥ تالر بروسى تدفع لها من فوائد الثلاثة
آلاف تالر من قرض الحكومة البروسية وفائدته ٥, ٣ فى المائة وتودع
فوائد القرض فى مكاتب الإيجارات هنا، وتدفع لها هذه الفائدة مرتين
سنوياً. وبعد وفاتها تسلم مستندات قرض الحكومة سالفه الذكر
لوريشى الوحيد. ولكن فى حالة احتمال أن ينخفض سعر فائدة هذه
المستندات، فإن المعاش المقرر وقدره ١٠٥ تالر بروسى يكمل من
رأس مال هذه المستندات طالما ظلت شنيب على قيد الحياة. أما إذا
لم تكن وقت وفاتى على قيد الحياة أو كانت قد خرجت من خدمتى
بسبب يرجع إليّ أو إليها، فإن الوصية الخاصة بها تعتبر لاغية.

- كما تتقاضى هذه الخادمة منذ وفاتى وإلى أن يصرف لها أول
معاش سنوى مبلغ ٤٠ تالر شهرياً من ثروتى الخاصة ويضاف إليه
٣٠ كرويتس يومياً كمصروف يومى.



خامسًا: بمقتضى هذا أعين دكتور القانون مارتن ايمدن Dr. Martin Emden منفذًا لوصيتى، فهو الذى يشرف على إيداع السندات لصالح خادمتى (البندين ٢ و ٤) فى المكان الذى حددته. وأوصى للدكتور المذكور بمكتبى أى جميع كتبى بما وضعت عليه من أرفف وجميع التحف الفنية والتماثيل واللوحات والرسوم والأدوات الرياضية والطبيعية والموسيقية والنوت الموسيقية وأسلحتى والعصى وساعتى الذهبية بسلسلتها ودلاياتها الذهبية وكل الأشياء الذهبية ماعدا العملة ومنظار الأوبرا والمنظار العادى. ولكن يستثنى من هذه الأشياء الصغيرة. وإذا لم يكن الدكتور ايمدين حيًا عند مماتى تلغى وصيتى بالنسبة له ولا تذهب إلى ورثته. وفى هذه الحالة يتولى مهمته منفذًا آخر تعينه المحكمة ليقوم فقط بالأعمال التى كان الدكتور ايمدين سيقوم بها.

سادسًا: أترك لدكتور الفلسفة ي. فراونشتيت Dr. phil J. Frauenstädt وهو الآن فى برلين - مخطوطاتى العلمية جميعها والأوراق التى تتخلل كتبى وتتضمن الإضافات إليها، وكل أعمال ومخطوطات «كانت» وتمثال «كانت» ودبوس صدرى ذا الفص الزبرجدى، ووصيتى شخصية، وفى حالة ما إذا كان قد مات قبل وفاتى تؤول الوصية إلى دكتور القانون ايمدين.

وفيما بعد إضافة تلحق بهذه الوصية.

سابعًا: أترك لمكتبة بلدية فرانكفورت المصورات الموقع عليها من الخلف بالحروف ف. س. ب. F.S.B.

ثامنًا: الكلب الذى يكون فى حيازتى عند مماتى يمكن أن تأخذه



الخادمة المشار إليها إذا هي وعدت بالمحافظة عليه ورعايته بنفسها وألا تتنازل عنه لشخص آخر. فإذا لم تشأ هذا، قام الدكتور ايمدن بهذا العمل فى سبيل الصداقة حتى النهاية الطبيعية للكلب كما وعدنى بذلك. والذي يأخذ الكلب من هذين الشخصين يأخذ من ثروتى مبلغ ٢٠٠ جولدن (قطعة فضية) فوراً. وهكذا تنتهى وصيتى التى أضيف إليها فيما يلى ملحقاً آخر:

- يخصص من ثروتى قبل كل شىء ما قد أكون مدينًا به، وهو شىء لا بد أن يكون يسيرًا، إذ أنه من عادتى أن أدفع كل شىء فوراً. ومن ثم فهو لن يتجاوز قيمة إيجار ٣ أشهر عن المسكن، ومبلغ اشتراك شهر واحد فى المطعم، وقيمة فواتير المكتبة لمدة ستة أشهر عن ثمن كتب؛ ومثل ذلك لحائك الثياب، وصانع الأحذية، والخادمة الموجودة وقتئذ. كما يخصص من ثروتى قبل كل شىء، تكاليف دفنى الذى يجب أن يكون محترمًا، فالصندوق يجب أن يكون من خشب السنديان القوى، والمقبرة يجب أن يشتريها الدكتور ايمدن فى مكان فاخر، وأن يكون القبر نفسه من المرمر والأفضل لو كان من الجرانيت، وينقش عليه اسمى فحسب، فلا تاريخ ولا صفات، بل الاسم المجرد. وكل التكاليف التى يقول الدكتور ايمدين أنه دفعها قبل فتح هذه الوصية لهذا الغرض تدفع له فوراً وبلا مناقشة.

- أما بصدد مزرعتى ومكانها فسيوجد وصفها وكل المعلومات الخاصة بها على صفحات كتاب الدخل والمنصرف الخاص بى، فإذا لم توجد المعلومات كلها فى صفحة واحدة فكل ما لم يكن مشطوباً منها فهو صحيح. والمعاش السنوى المستحق لى فى باريس لا يدفع إلا فى أثناء حياتى، وتدفعه شركة التأمين العامة فى باريس



حيث يعنى السيد ب. هـ. - جولد شميت B.H Goldschmidt بتحصيل
الأموال المستحقة بى.

- وقيمة التأمين المستحقة فى إنجلترا ستدفع بعد وفاتى وسيبلغ
عندئذ ١٠ بنس ١٨ شلن ١٧ جنيهًا عند شركة سنكنج Sinking Fund
وسيحصله لى دو كسات وشركاه Doxat & Co. فى لندن. ولى عند
شركة تأمينات برلين مبلغ ٣٠٠٠ تالر بروسى وفائدته ٦ فى المائة
سنوياً، وستحصله لى شتيجلتس وشركاه Stieglitz & Co. وهذا
المبلغ يذهب إلى ورثتى أما الفوائد فليست فى حاجة إلى إثبات.
ملحق:

أترك للذى ذكرته فى البند الرابع وهو الدكتورى. فراونشتيت
جميع حقوق نشر مخطوطاتى السابقة إذ أن الناشرين قد تخلوا عن
هذه الحقوق رسمياً فى عقودهم.

هذه هى الإضافة التى سبق أن أشير إليها من قبل.

(تعقب ذلك فقرة باللغة اللاتينية تشير إلى الأماكن التى خلف
فيها تركته)، وهى:

Heic autem moneo, arcam meam scriptoriam, vulgo sec-
retarius nuncupatam, primo per omnes ejus loculos,foros,
recessus et angulos diligenter perscrutandam atque rimandam,
ipsumque atramentarium excutiendum esse, quin etiam episto-
las ceterasque chartas omnes, in parvis forulis ductilibus supe-
rioris, ergo valva operate, arcae parties asservatas singulatim
explicandas esse, quippe quae saepe syngraphas similiaque

continent, item notas musicas, in suprema arcae parte repositas foliatim evolvendas esse, denique vero ipsam arcam tabulatim disjungendam et rescindendam esse, ita ut ne duae quidem ejus tabulae amplius cohaereant. Nam hoc pacto demum invenientur quae inveniri maximi momenti est. Hoc igitur coram testibus idoneis fieri jubeo, omnibusque injungo – fragmenta arcae divulsae denture Doctori M. Emden.

وإني أحرم كل إضافة أو خلط أو تعقيد قانوني، كما أن كل فرد من ورثتي أو أقربائي أو من أوصيت لهم بشيء في هذه الوصية يخرج على هذه الوصية فإنه يفقد كل الحقوق والمزايا التي يستفيد منها من هذه الوصية.

واحتفظ بالحق في إن أضيف إلى هذه الوصية والملاحظات والإضافات الخاصة بها أية وصايا أخرى مما تعني لي فيما بعد، فإذا كتبتها بنفسى أو وقعت عليها وجب إضافتها إلى هذه الوصية.

وإذا لم يقبل وجود هذه الوصية، فإني أريد أن تراعى وإن تنفذ بحيث تتلاءم مع القانون.

وأشهد هنا بأنني كتبت هذه الوصية الحاضرة بيدي، وهى وصيتي الأخيرة الحقة وقعتها أمام موثق العقود وأمام سبعة شهود استدعوا لهذا الغرض فحسب. ووقعها بيدي وختمتها.

في فرانكفورت ألمانيا في ٢٦ يونيو ١٨٥٢

أمضاء: آرتور شوبنهاور

المجلد الثانى
فلسفة شوبنهاور





أعمال شوبنهاور

لم يخلف شوبنهاور مجموعة ضخمة من الأعمال، إذ كان يرى إنه لا داعى للثرثرة والإكثار من الكتابة، وخاصة أنه اعتقد بتمام الرسالة التى جاء من أجلها إلى هذه الحياة، وإنه قال ما كان عليه أن يقول، وانتهى من الواجب الذى كان عليه أن يؤديه تجاه العالم.

وجاءت رسالته فى الحياة فى تلك المجلدات الأربعة التى ضمت مجموعة أعماله التى ظهر أولها فى سنة ١٨١٣ وبقي البعض منها مخطوطاً إلى ما بعد وفاته.

ويهمنا أن نتتبع هنا التطورات التى مر بها كل عمل من هذه الأعمال؛ إذ يطلعنا ذلك على صورة صادقة للتطورات التى مرت بحياة شوبنهاور الفكرية.

ففى سنة ١٨١٣ ظهرت الطبعة الأولى من كتابه «عن الأصل الرباعى لمبدأ العلة الكافية» Ueber die Vierfache Wurzel des Satzes von Zureichenden Grunde، والطبعة الثانية ظهرت فى فرانكفورت ألمانيا فى سنة ١٨٣٧ - وبعد وفاته نشره فراونشيت فى ليبتيسيج فى سنة ١٨٦٤.



وفى سنة ١٨١٦ ظهرت فى ليتسيج الطبعة الأولى من كتابه «عن الإبصار والألوان» Ueber das Sehen und die Farben.

وظهرت فى سنة ١٨٥٤ الطبعة الثانية فى ليتسيج أيضًا، كذلك نشر فراونشيت فى ليتسيج الطبعة الثالثة فى سنة ١٨٦٩ بعد وفاة شوبنهاور.

وفى سنة ١٨١٨ ظهرت الطبعة الأولى من كتاب «العالم إرادة وتخيّل» Die Welt als Wille und Vorstellung.

أما الطبعة الثانية منه فقد ظهرت فى ليتسيج فى سنة ١٨٤٤ فى جزئين ومضافاً إليها الكثير من الزيادات. وظهرت الطبعة الثالثة فى سنة ١٨٥٩. أما الطبعات التالية فقد نشرها فراونشيت حاوية على التصحيحات والإضافات التى كان شوبنهاور قد أدخلها على نسخة من الطبعة الثالثة، بأن وضع الإضافات على أوراق بيضاء تتخلل صفحات هذه النسخة، وسجل التصحيحات على متن الكتاب ذاته، وظهرت الطبعة الرابعة للكتاب بشكله النهائى فى سنة ١٧٨٣ بعد وفاة شوبنهاور.

وفى سنة ١٨٣٠ ظهرت النسخة اللاتينية من كتابه «عن الإبصار والألوان» ضمن مجموعة راديووس Radius، وأسمائها «الكتاب الصغار فى علم العين» Scriptorum ophthalmologicorum minores.

وفى سنة ١٨٣٦ ظهرت الطبعة الأولى من كتابه «عن الإرادة فى الطبيعة» Ueber den Willen in der Natur وظهرت الطبعة الثانية فى سنة ١٨٥٤ وفيها قدح لاذع فى فلاسفة الجامعة.

وفى سنة ١٨٤١ ظهرت فى فرانكفورت ألمانيا الطبعة



الأولى من «المشكلتين الرئيسيتين لعلم الأخلاق»، Die beiden Grundprobleme der Ethik Ueber die Freiheit des menschlichen Willens وهو الذى أجازته الجمعية الملكية فى النرويج. وبحثه «عن أساس الأخلاق» Ueber das Fundament der Moral وهو الذى رفضته الجمعية الملكية فى الدنمرك، مع مقدمة الكتاب ككل. وقد تعرض فيها لأعضاء أكاديمية الدنمرك الذين قالوا: «إنه لم يدرك شيئاً من البحث المطروح، وأنه أبدى قلة احترام نحو فلاسفة عظام أمثال فيشته وهيجل». وأصاب أعضاء الأكاديمية ما أصاب فيشته وهيجل من توجيه النقد إليهم. أما الطبعة الثانية فقد ظهرت فى سنة ١٨٦٠. وفى سنة ١٨٥١ ظهرت فى برلين الطبعة الأولى من كتابه «الحواشى والبواقى» Parerga und Paralipomena بجزئيه.

أما المخطوطات التى تركها شوبنهاور، فقد نشرها يوليوس فراونشتيت فى ليبسيغ فى سنة ١٨٦٤ بعنوان «رسائل وتعليقات وأقوال وشذرات».

Abhandlungen, Anmerkungen, Aphorismen und Fragmente.

وفى سنة ١٨٩١ أعاد ر. فون كبير R.von Koeber نشرها فى برلين، ثم نشرت بعد ذلك فى رسائل مفردة.

ففى سنة ١٩٠٤ نشرت فى شتوتجارت Stuttgart رسالته «عن الموت» Ueber den Tod وذلك فى طبعة شعبية.

وفى سنة ١٩٠٨ نشر بندكت فريدليندر Benedict Friedlander رسالته «حول النساء» Ueber die Weiber وذلك فى برلين.

وفى سنة ١٩٠٨ نشر إدوارد جريزباخ رسالته «حكم فى الحياة»



Aphorismen zur Lebensweisheit وذلك فى مطبعة ركلام
فى لييتسيج.

وفى سنة ١٩١٣ نشرت فى لييتسيج رسالته «عن القراءة والكتب»
Ueber Lesen und Bücher.

وفى سنة ١٩١٤ نشرت فى لييتسيج رسالته «عن الكتابة
والأسلوب» Ueber Schriftstellerei und Stil

وفى سنة ١٩٢٠ نشرت فى داخاو رسالته «ميتا فيزيقا الحب
الجنسى» Metaphysik der Geschlechtsliebe.

وأخيراً نشرت له ترجمة كتاب جراثيان: نبوءة الكف Gracians
Handorakel، وجمعت كل هذه المخلفات مرة أخرى، وأشرف على
طبعها من جديد دويسن وفايس Deussen und Weiss

وبالإضافة إلى ذلك، فلشوبنهاور مراسلات مع يوحنا أوجست
بيكر Joh Aug. Becker نشرها فى سنة ١٨٨٣ يوحنا كارل بيكر Joh.
Karl Becker فى لييتسيج.

كذلك نشر جريزباخ فى سنة ١٨٩٥ مجموعة أحاديث شوبنهاور
فى الفترة من ١٨١٣ - ١٨٦٠ مع بيكر وفراونشتيت وفون دورز
von Dors وليندينز Lindner وأشير Asher.

وفى سنة ١٩٠٤ ظهرت الطبعة الثانية على مطابع ركلام فى
لييتسيج.

أما مجموعة أعماله، فقد نشرها دويسن فى طبعة علمية ناقد فى
١٤ مجلدًا، وذلك ابتداء من سنة ١٩١١ لدى دارى. بيبر R.Piper
فى مينشين.



العالم تخيل

أول ما يستلفت نظر قارئ كتاب «العالم - إرادة وتخيل» هو أسلوبه، فليس فيه ألغاز صينية كما في اصطلاحات «كانت» المعقدة، أو غموض «هيجل»، أو هندسة اسبيوزا؛ بل كل شيء واضح ومنظم، وكل شيء مركز بصورة تدعو إلى الإعجاب حول المفهوم الرئيسى للعالم كإرادة ثم الصراع ونتيجة ذلك من شقاء. وياله من صدق صريح ودأب متجدد وصراحة لا تحتمل المساومة. وحيثما عمد سابقوه إلى التجريد الذى يصل أحياناً إلى حد إخفاء المعانى، عمد شوبنهاور فى نظرياته إلى فتح النوافذ التصويرية على العالم الواقعى، فجاءت نظرياته غنية فى إيراد الملموس المقرر والأمثلة الواضحة وفى التطبيق بل غنية بالفكاهة أيضاً. وفى الواقع أن الفكاهة فى الفلسفة جاءت بعد «كانت» تطوراً يستلفت النظر.

ولقد بعث شوبنهاور إلى جيته خطاباً مليئاً بالفخر يقول فيه: «لا أعتقد أنى بمستطيع أن أنتج شيئاً أفضل من هذا الكتاب أو يفوقه فى أهميته الجوهرية. وأنا أرى أن هيلفيستيوس كان على صواب حين قال إن جميع أفكار المرء حتى بلوغه الثلاثين - أو الخامسة والثلاثين على الأكثر - من عمره تثيرها فيه انطباعات العالم - مما يكون قادراً عليها. وكل ما ينتجه بعد ذلك لا يعد إلا تنمية لهذه الأفكار».



وكان هذا الإحساس صادقًا بالنسبة لشوبنهاور، إذ ضم كتابه «العالم - إرادة وتخيل» كل عمله في الحياة فعليًا. وليس ما وضعه بعد هذا العمل الخالد إلا مجرد توسيع وتعميق وتشكيل لما جاء في الكتاب الأول.

ولكن لماذا كان نصيب الكتاب الكساد والبوار؟ يرى البعض أن هذا يرجع إلى أن شوبنهاور هاجم أساتذة الجامعة، وكان من المحتمل أن يساعدوا على انتشاره وذيوعه. فقد كان هيجل دكتاتور الفلسفة في ألمانيا عام ١٨١٨، ومع ذلك فقد غمره شوبنهاور بفيض من هجماته بل كتب في مقدمة الطبعة الثانية من ذلك الكتاب:

«لا يمكن أن يكون هناك وقت أكثر في عدم ملاءمته للفلسفة من ذلك الوقت الذي يساء فيه استخدامها في العمل على ترويج الأهداف السياسية من جهة، أو في اتخاذها - من جهة أخرى - وسيلة لكسب العيش... فهل في هذا ما يناقض الحكمة التي تقول أن «على المرء أن يعيش أولاً ثم له بعد ذلك أن يتفلسف» *Primum vivere, deinde Philosophari*. أن هؤلاء السادة يرغبون في الحياة، ويرغبون في أن يعيشوا على الفلسفة حقًا. وقد عينوا مع زوجاتهم وأبنائهم ليتفلسفوا... ولقد صحت القاعدة «إنى أصبح بحمد من أكل خبزه»؛ فكسب المال بالفلسفة كان يعتبر عند القدماء طابع السوفسطائيين المميز.. فلا شيء يكتسب بالمال سوى أواسط الأمور.. ومن المستحيل في عصر صفق الناس فيه عشرين عامًا لهيجل - ذلك الوحش العقلي على اعتبار أنه أعظم الفلاسفة.. أن يظل متطلعًا إلى ذلك الرجل الراغب في الاستحسان.. ولكن الحقيقة يجب أن تنتظر في هدوء وفي تواضع لأولئك القلة الذين تدفعهم طريقتهم



غير العادية في التفكير إلى أن يجدوها جديرة بالاستمتاع... والحياة قصيرة ولكن الحقيقة أطول عمرًا.. ومن ثم فلنقل الحقيقة».

لقد قيلت هذه الكلمات الأخيرة بطريقة كتلك التي أعتاد النبلاء التحدث بها، ولكنها تنضح كلها بما فيها من مرارة الحصرم، والعجيب أنه في الوقت الذي يتلهف فيه شوبنهاور على الشاء يصدر منه ذلك القدح في هيكل؛ ولكم يكون أكثر نبلاً لو أنه لم يسيء إلى هيكل «de vivis nil nisi bonum عن الأحياء لا يقال إلا ما هو طيب».

أما عن التواضع في انتظار الاعتراف، فيقول شوبنهاور: «لا أستطيع أن أرى شيئاً قد تم في حقل الفلسفة خلال الفترة التي انقضت بعد كانت حتى جئت أنا!»^(١). «وأنا موقن بأن هذه الفكرة - العالم إرادة - هي الدائرة التي كان البحث يجرى فيها تحت اسم الفلسفة. وكان اكتشافها - في نظر الملمين بالتاريخ - مستحيلاً استحالة اكتشاف حجر الفلاسفة»^(٢). وكل ما أنويه هو إبراز فكرة واحدة؛ ومع ذلك - وبالرغم من كل ما بذلت من جهد - فأني لم أجد طريقاً أقصر من وضع هذا الكتاب لإبراز هذه الفكرة... فاقرأ الكتاب مرتين ولتكن قراءتك الأولى إياه بصبر عظيم»^(٣).

ومما ذكره في معرض حديثه عن التواضع: ما التواضع إلا ضعة المنافقين، يستطيع بها الإنسان - في عالم ملئ بالحقد والحسد - أن

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثاني - ص ٥.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ز.

(٣) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ح وفي الواقع، هذا ما ينبغي أن يفعله المرء، بل لقد اتضح للبعض أن القراءة الثالثة جاءت بشمار أفضل. فالكتاب القيم يشبه القطعة الموسيقية التي ينبغي أن تسمع مراراً حتى يستسيغها السامع.



يلتمس عذرا التفوقه ونبوغه من أولئك المحرومين منها»^(١)، «ولا شك في أنه عندما اعتبر التواضع فضيلة، إنما كان ذا فائدة كبرى للحمقى؛ إذ أنه يتطلب من كل أمرئ أن يتكلم عن نفسه كما لو كان فردا»^(٢).

ومع ذلك، لم يكن هناك تواضع في العبارة الأولى من كتاب شوبنهاور التي تبدأ بقوله «أن العالم فكرتي». وعندما نطق «فيشته» افتراضا مشابها لهذا، تساءل الألمان المتحذلقون السوفسطائيون في أمور الطبيعة: «ما رأى زوجته في هذا؟»؛ ولكن شوبنهاور لم تكن له زوجة. وكان معناه طبعاً بسيطاً جداً: لقد أراد أن نقبل الوضع الذي رسمه «كانت» من أن العالم الخارجى معروف لنا عن طريق حواسنا وأفكارنا. ويتبع هذا عرض للمثالية التي هى واضحة وضوحاً كافياً وقوية كل القوة ولكنها أضعف أجزاء الكتاب، حتى ليخيل لنا إنه ربما كان من الأفضل أن تعرض فى آخر الكتاب بدلاً من أن تجيء فى أوله. وأننا نعتقد إن هذا القسم كان سبباً فى إن العالم استغرق جيلاً كاملاً لكى يكتشف شوبنهاور الذى أساء تقديم عمله الرائع عندما أخفى فكرته خلف حاجز كثيف يقوم على ما يزيد على مائتى صفحة ملأها بالمثالية القديمة^(٣).

فأكثر الأجزاء حيوية من القسم الأول يضم هجوماً على المادية. كيف نفسر العقل على إنه مادة بينما نحن لا نعرف المادة إلا عن طريق العقل؟

(١) العالم إرادة وتخيّل - المجلد الأول - ص ٣٠٣.

(٢) الحواشى والبواقى «عن الاعتزاز بالنفس».

(٣) لا يستطيع المرء أن يتفهم شوبنهاور بحق إلا عن طريق أعماله ذاتها، وكلها من السهل قراءتها لمن يعرف الألمانية - ومع ذلك - فأرجو أن تصدر قريباً ترجمة نصية كاملة لمجموعة أعماله.



«لو تتبعنا المادية إلى مدى بعيد بآراء واضحة، حتى تصل إلى أقصى سمت لها لفوجئنا على حين غرة بضحك شديد من الهة الأوليمب. ولكن شأننا كمن يفيق من حلم، فندرك فجأة أن النتيجة الخطيرة - المعرفة - التي وصلت إليها المادية بعد كل ذلك الجهد والداب سبق أن افترضت من قبل على إنها شرط لا غنى عنه منذ البداية الأولى. المادة المجردة؛ وعند ما تخيلنا أننا نفكر في المادة، فأنا نفكر - في الحقيقة - في الموضوع الذي يدرك المادة: العين التي تراها، واليد التي تحسها، والفهم الذي يقف عليها. وهكذا تكشف الحقيقة Petitio Principii عن نفسها على غير انتظار، إلا أن الحلقة الأخيرة تبدو كما لو كانت نقطة لبداية سلسلة في دائرة، ويكون شأن المادى كشأن البارون مينشاوزن الذي كان يسبح على ظهر جواده، ثم رفع الحصان بساقيه إلى الهواء وهو ذاته بشعره المستعار...^(١)»

«وأن المادية الخالصة التي تقوم حتى الآن في منتصف القرن التاسع عشر^(٢) تحت ستار من الوهم الكاذب على إنها أصيلة... تنكر الغباوة القوة الحيوية، وتحاول قبل كل شيء أن تفسر ظاهر الحياة من قوى طبيعية وكيميائية، وتفسر هذه القوى من المؤثرات الآلية للمادة...^(٣) ولكنى لن أصدق أبداً أن مجرد أبسط خلط كيميائى

(١) العالم إرادة وتخييل - المجلد الأول - ص ٣٤.

(٢) فوجت Vogt وبيشنر Büchner وموليشوت Moleschott وفوبرباخ Feuerbach وغيرهم.

(٣) العالم إرادة وتخييل - المجلد الأول - ص ١٥٩.



يسمح بتفسير آلى، وأقل من هذا احتمالاً خصائص الضوء والحرارة والكهرباء - لأن كل هذا يتطلب دائماً تفسيراً حركياً»^(١).

كلا، أنه من المستحيل حول اللغز الميتافيزيقى، وكشف سر روح الحقيقة بفحص المادة أولاً ثم الاستمرار بفحص الفكر.. بل يجب أن نبدأ بما نعرفه مباشرة - وعن كذب - يجب أن نبدأ بأنفسنا. فإننا «لا نستطيع أبداً أن نصل إلى الطبيعة الحقيقية للأشياء من الخارج ومهما طال بحثنا، فإننا لن نستطيع الوصول إلى شىء سوى الصور والأسماء. فنحن أشبه برجل يدور حول قلعة وهو يبحث عبثاً عن مدخل إليها، ويعمد أحياناً إلى رسم خطوط لواجهاتها»^(٢). لتتوغل إلى الداخل؛ حتى إذا ما استطعنا أن نصل إلى الطبيعة المطلقة لعقولنا، ربما أصبح لدينا مفتاح العالم الخارجى.

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثالث - ص ٤٣.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ١٢٨.



العالم إرادة

١- إرادة الحياة

لقد استقر الفلاسفة جميعًا بلا استثناء على أن جوهر العقل فى الفكر والإدراك؛ وكان الإنسان عندهم إنما هو الحيوان العاقل animal rationale إلا أنه «يجب طرح هذه الغلطة القديمة والجوهرية العامة Proton Pseudos قبل كل شىء»^(١). «فليس الإدراك إلا مجرد سطح لعقولنا لا نعرف عنه إلا بقدر ما نعرف عن سطح الكرة الأرضية إذ لا نعرف ما تحت قشرتها»^(٢) ف وراء العقل الواعى تقبع الإرادة الشعورية أو اللاشعورية، وهى قوة حية ملحة جاهدة، وهى نشاط ذاتى، وإرادة رغبة مستعرة. وقد يبد العقل أحيانًا موجهًا للإرادة، ولكنه فى هذه الحالة لا يكون إلا الدليل الذى يقود سيده، فالإرادة هى «الرجل القوى الأعمى الذى يحمل على كتفيه الرجل الأعرج الذى يستطيع أن يرى»^(٣). ونحن عندما نريد شيئًا، لا نريده لأننا وجدنا أسبابًا تستدعى

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثانى ص ٤٠٩. ترى هل يتناسى شوبنهاور هنا ما قال به سبينوزا من أن «الرغبة هى الجوهر الحقيقى للإنسان»؟! وهل يتناسى ما أكده نيتشه عن الإرادة أيضًا؟!

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثانى - ص ٣٢٨.

(٣) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثانى - ص ٤٢١.



ذلك؛ بل إننا نوجد أسبابًا له لأننا نريده؛ كما أننا نحسن الفلسفة والعلوم الدينية لنغطى رغباتنا^(١). ومن هنا جاء وصف شوبنهاور للإنسان بأنه «الحيوان الميتافيزيقى» فالحيوانات الأخرى ترغب دون ميتافيزيقات «وليس هناك ما هو أكثر إثارة من إننا عندما نحاج رجلًا بالأسباب والشروح، ونتجشم كل مشقة فى إقناعه، نتبين فى النهاية أنه لا يريد أن يفهم، وأن علينا أن نخاطب إرادته»^(٢). ومن هنا كان عدم جدوى المنطق، فإن أحدًا لم يستطع أن يقنع شخصًا آخر بالمنطق، بل إن علماء المنطق لا يستخدمون المنطق إلا مصدرًا للدخل. ولكى تقنع رجلًا، يجب أن تخاطب فيه مصلحته الخاصة ورغباته وإرادته. ولنلاحظ إلى أى مدى يطول تذكرنا انتصاراتنا، والسرعة التى ننسى بها هزائمنا، فالذاكرة ليست إلا أداة طيعة فى يد الإرادة^(٣). «ونحن نخطئ فى الحساب وغالبًا ما يكون الخطأ لصالحنا لا ضد مصلحتنا، ويكون هذا دون أدنى قصد سيئ»^(٤). «ومن ناحية أخرى، ينقلب الفهم لدى أشد الناس غباء ليصبح حادًا فى حالة ما إذا كانت الموضوعات التى تحت البحث متصلة برغباته اتصالًا وثيقًا»^(٥). وعلى العموم، فإن العقل يتطور طبقًا لطبيعة الخطر، كما يحدث للشعب، أو طبقًا لطبيعة الحاجة، كما يحدث للمجرم. ولكنه يبدو دائمًا تابعًا بل أداة للرغبة، حتى إذا ما حاول أن يحل محل الإرادة، يقع الارتباك. فليس

(١) وهذا ما يقول به فرويد فيما بعد.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثالث - ص ٤٤٣.

(٣) الحواشى والبواقى، و«حكم وأمثال» ص ١٢٦.

(٤) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثانى - ص ٤٣٣.

(٥) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثانى - ص ٤٣٧.



هناك من هو أكثر تعرضاً للوقوع فى الأخطاء ممن يعمل وفقاً للتفكير والتأمل فحسب^(١).

تأمل فى صراع البشر العنيف من أجل لقمة العيش، والزواج، والذرية، فهل يمكن أن يكون هذا نتيجة تفكير؟ طبعاً لا، لأن السبب هو الإرادة النصف شعورية فى الحياة، والحياة حياة كاملة. وقد «يبدو الناس مشدودين من الأمام فحسب، ولكنهم فى الحقيقة مدفوعون من الخلف»^(٢)؛ وأن كانوا يظنون إنهم مقودون فى طريقهم إلى ما يرون، ولكنهم فى الحقيقة مسوقون بما يشعرون - بالغرائز التى لا يشعرون بعملها إلا نصف الوقت. والعقل ليس إلا وزير خارجية «جعلته الطبيعة فى خدمة إرادة الفرد. ولهذا فالمقدر له هو أن يعرف الأشياء بمقدار ما تتيح للإرادة من دوافع، لا ليتعمق وراء هذه الدوافع أو يفهم حقيقة كيانها»^(٣). و«الإرادة هى العنصر الوحيد الدائم الذى لا يتغير فى العقل»... وهى التى عن طريق استمرار الغرض «تعطى الوحدة للشعور وتجمع بين جميع آرائه وأفكاره، وتؤلف بينها فى توافق مستمر»^(٤). فهى النقطة العضوية فى الفكر.

والشخصية تشكلها الإرادة لا العقل، والشخصية أيضاً استمرار الغرض والاتجاه: وهذه هى الإرادة. واللغة الشعبية صحيحة فى تفضيلها «القلب» على «العقل» فهى تعرف «لأنها لم تفحص

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثانى - ص ٢٥١.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثالث - ص ١١٨.

(٣) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثانى - ص ٤٦٣، ٣٢٦، وهذا ما قال به برجسون فيما بعد.

(٤) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثانى - ص ٣٣٣.



الأسباب» أن «الإرادة الطيبة» أعمق من العقل المبين، ويمكن الاعتماد عليها أكثر منه، وعندما تصف إنساناً بأنه «داهية» أو «عارف» أو «ماكر» فهي تضمن هذا الوصف شكوكها وكرهيتها، «فالصفات اللامعة للعقل تكسب الإعجاب، ولكنها لا تكسب العاطفة» و«كل الأديان تعد بالثواب.. لمن يتفوقون في الإرادة أو القلب إلا لمن يتفوقون في العقل أول الفهم»^(١).

وحتى الجسد فهو نتاج الإرادة. فالدم الذي تدفعه تلك الإرادة التي تسميها - غموضاً - بالحياة بين أوعيته بشق القنوات في جسم الجنين؛ ثم تتعمق القنوات وتلتئم وتصبح أوردة وشرابين^(٢). وإرادة المعرفة تبنى المخ كما تشكل إرادة الاستحواذ اليد، أو كما أن إرادة الأكل تشجع الجهاز الهضمي^(٣). وفي الحقيقة، ليست هذه الازدواجات - هذه الصور من الإرادة وهذه الصور الجسدية - سوى جانبيين لعملية واحدة وحقيقة واحدة. ويمكن أن نتبين العلاقة بصورة أكمل في العاطفة، حيث يشكل الإحساس والتغيرات الجسدية الداخلية كلا مركبا واحداً^(٤). «وليس عمل الإرادة وحركة الجسم بشيئين مختلفين معروفين معرفة موضوعية، توحد بينهما رابطة السببية، إذ ليست علاقة كليهما من الآخر علاقة العلة من المعلول، فكلاهما واحد بل

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثاني - ص ٤٥٠، ٤٤٩.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثاني - ص ٤٧٩.

(٣) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثاني - ص ٤٨٦. وهذا ما قال به لامارك Lamarck الفرنسي (١٧٤٤ - ١٨٢٩ م) في مذهبه عن التطور العضوي حيث يرى أن النمو والتطور إنما يترتب على الرغبات والأعمال ومن ثم يلزم التكوين ويولد الأعضاء.

(٤) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ١٣٢. وهذا ما قال به جيمس لانج James Lange نظريته عن العاطفة.



نفس الشيء، ولكنهما يحدثان بطريقتين مختلفتين تمامًا، مباشرة، ثم بالإدراك... وليس عمل الجسم سوى عمل الإرادة وقد تجسد. ويصدق هذا على كل حركة للجسد... وليس الجسم كله سوى إرادة مجسدة... ومن ثم يجب أن تستجيب أجزاء الجسم تمامًا للطلبات الرئيسية التي تعبر بها الإرادة عن نفسها، ويجب أن تكون التعبير المنظور لهذه الرغبات. فالأسنان والحلقوم والأمعاء هي الجوع المجسد؛ وأعضاء التناسل هي الرغبة الجنسية المجسدة.. والجهاز العصبي كله يشكل قرن الاستشعار لدى الإرادة، الذي تبعث به في الداخل وإلى الخارج... وكما يستجيب جسم الإنسان كله للإرادة البشرية عامة، فإن البناء الجسدى للفرد يستجيب للإرادة المعدلة لدى الفرد، أى شخصية الفرد»^(١).

والعقل يتعب؛ ولكن الإرادة لا تتعب أبدًا؛ ويحتاج العقل للنوم، ولكن الإرادة تعمل حتى فى أثناء النوم. ومقر التعب - كالآلم - هو فى المخ، ولذا فإن العضلات التى لا تتصل بالمخ «كالقلب» لا تتعب قط^(٢). وفى النوم يتغذى المخ؛ ولكن الإرادة ليست فى حاجة إلى غذاء. ومن هنا كانت الحاجة إلى النوم عند المفكرين أقوى منها عند غيرهم. ولكن هذه الحقيقة «يجب ألا تضللنا فتؤدى بنا إلى النوم أكثر مما يجب؛ فعندنا يضيع أثر الإفراط.. ويصبح مجرد إضاعة

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ١٣٠ - ١٤١، والمجلد الثانى - ص ٤٨٢ - وكان قد قال بذلك سبينوزا أيضًا.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثانى - ص ٤٢٤. ولكن ألا يوجد إشباع الإرادة أو استنفادها؟! والأساس إنه حتى فى حالات التعب أو المرض تدبّل إرادة الحياة.



للوقت»^(١). وفى النوم تهبط حياة الإنسان حتى تصل إلى مستوى النبات، ومن ثم «تعمل الإرادة وفق طبيعتها الأصلية والضرورية، دون إزعاج من الخارج، وبدون إنقاص من قوتها عن طريق النشاط الذهني والإجهد الذى تسببه المعرفة، وهى أثقل عمل عضوى ولذا تكون كل قوة الإرادة فى النوم موجهة نحو المحافظة على الجسم وتحسينه. ومن هنا نجد فى النوم العلاج لكل الأزمات التى نعرض لها»^(٢).

ولقد أصاب بورداخ Bordach عندما أعلن أن النوم هو الحالة الأصلية؛ فالجنين ينام نومًا يكاد يكون متصلًا، والطفل ينام معظم الوقت. والحياة «كفاح ضد النوم: فننتصر عليه فى أول الأمر، إلا إنه يعود فينتصر علينا. والنوم قطعة من الموت نستعيرها لنحفظ ونجدد بها ذلك الجزء من الحياة الذى استنفدناه طول النهار»^(٣). وهو عدونا الخالد، إذ يهيمن علينا حتى فى يقظتنا هيمنة جزئية. وعلى كل حال، ماذا ينتظر من العقل وهو الذى «يكون كل ليلة - حتى فى أكثرها حكمة - مسرحًا لأغرب الأحلام وأكثرها بعدًا عن المعنى، والتى لا بد له أن يتابع التأمل فيها مرة أخرى عند الاستيقاظ من هذه الإحلام؟»^(٤).. وعلى ذلك فالإرادة جوهر الإنسان.

والآن، ماذا يكون الأمر لو إنها كانت جوهر الحياة فى جميع أشكالها، بما فى ذلك تلك الأشياء الخاملة؟

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثانى - ص ٤٦٨.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثانى - ص ٤٦٣.

(٣) حكم وأمثال - موضوعه «عن علاقاتنا بأنفسنا».

(٤) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثانى - ص ٣٣٣.



ماذا يكون الأمر لو أن الإرادة كانت الحقيقة الجوانية المطلقة،
والجوهر الخفى فى كل الأشياء: تلك الحقيقة التى طال البحث عنها
وطال اليأس من العثور عليها، وهى «الشيء فى ذاته»؟

فلنحاول إذن أن نفسر مظاهر العالم الخارجى على ضوء الإرادة.
ولنذهب رأسًا إلى القاع، حيث قال الآخرون إن الإرادة شكل من
القوة - ولنقل أن القوة شكل من أشكال الإرادة^(٥). وسوف نرد على
سؤال هيوم: - «ما هى السببية؟» - بأنها الإرادة. وطالما أن الإرادة
هى السبب العام فى أنفسنا، فإنها بالمثل فى الأشياء، وما لم نفهم
السبب على أنه الإرادة، تظل السببية مجرد وصفة سرية غامضة لا
معنى لها فى الحقيقة. وبدون هذا السر، فإننا نساق إلى صفات مجردة
غامضة مثل «القوة» أو «الثقل» أو «التجاذب»؛ ولا نعرف كنه هذه
القوى، ولكننا نعرف - على الأقل بوضوح أكثر قليلًا - ماهية الإرادة.
لنقل إذن، أن الطرد والجذب، والاتحاد والتحلل، والمغناطيسية
والكهربية، والثقل والتبلور: كل هذا هو الإرادة^(٦). ولقد عبر جيته عن
هذه الفكرة فى عنوان إحدى قصصه الطويلة، عندما أسمى انجذاب
العاشقين، ذلك الانجذاب الذى لا يقاوم، بأنه «التجاذب الاختيارى»
Die Wahlverandschaften فالقوة التى تجذب العاشق، والقوة التى
تجذب الكوكب - واحدة.

وهذا هو شأن الحياة فى النبات. فكلما هبطنا فى أشكال الحياة
كلما وجدنا دور العقل أقل، ولكن ليس هذا هو شأن الإرادة.

(٥) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ١٤٤.

(٦) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ١٤٢.



«إن ذلك الذى يسير فينا على ضوء المعرفة وراء أهدافه، ولكنه هنا.. يمضى فحسب أعمى أصم بطريقة رتيبة لا تتغير، ومع ذلك ففى كلتا الحالتين يجب أن يدرج تحت اسم الإرادة... وأن اللاشعور هو الحالة الأولية والطبيعية للأشياء جميعاً، ومن ثم يكون كذلك الأساس الذى يقوم عليه الشعور - فى بعض أنواع الكائنات - على أنه أقصى ازدهار لها، بينما يستمر اللاشعور دومًا هو العنصر السائد فيها. وتبعًا لهذا، تكون أغلب الموجودات بلا شعور؛ ولكنها مع ذلك تعمل طبقًا لقوانين طبيعتها، أى وفق إرادتها. وليس فى النباتات إلا نوع ضعيف جدًا من الشعور على الأكثر، وفى أحط أنواع الحيوانات نجد طلائع الشعور فحسب. ولكن حتى بعد أن ارتقى الشعور طوال كل السلسلة الحيوانية حتى وصل إلى الإنسان وعقله، فلا يزال الأساس هو اللاشعور فى النبات الذى بدأت منه السلسلة ويمكن تعقب ذلك فى ضرورة النوم»^(١).

ولقد كان أرسطو على حق: فهناك قوة كامنة تشكل كل شكل فى النباتات وفى الكواكب وفى الحيوان وفى الإنسان. «وفى الغريزة لدى الحيوانات بصفة عامة أحسن تصوير لما يبقى من فلسفة البحث من غايات الطبيعة فيها. فكما أن الغريزة عمل مماثل لذلك الذى يوجه إدراك غاية، ومع ذلك يكون بدونها تمامًا؛ كذلك يكون كل كيان فى الطبيعة يشبه ذلك الذى يوجه إدراك غاية، ومع ذلك يكون بدونها»^(٢). هذا وتبين لنا البراعة الآلية العجيبة لدى الحيوانات مدى

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ١٥٣، والمجلد الثانى - ص ٤١٨، ٣٣٧.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٢١٠.



أسبقية الإرادة على العقل. الفيل الذي اقتيد عبر أوروبا، واجتاز مئات من الجسور يرفض أن يسير فوق كوبرى ضعيف، وذلك على الرغم من إنه رأى كثيرًا من الجياد والرجال يعبرونه. والكلب الصغير يخاف القفز فوق المنضدة، فهو يتنبأ بتأثير السقطة لا بالعقل (لأنه لا خبرة له بمثل هذه السقطة) بل بالغريزة. وإنسان الغاب - Orang Utan تستدفع بالنار التي تجدها، ولكنها لا تأكلها. فمن البدهة إذن أن مثل هذه الأعمال هي أعمال غريزية، وليست ثمرة العقل وهي تعبير عن الإرادة لا العقل^(١).

والإرادة طبعًا هي إرادة الحياة وإرادة أقصى الحياة. وكم هي عزيزة تلك الحياة على الكائنات الحية جميعًا! وياله من صبر - فى صمت - ذلك الذى يبدو منها فى انتظار وقتها! «لقد ظلت الكهربائية كامنة آلاف الأعوام فى النحاس والزنك، وهما راقدان إلى جانب الفضة فى هدوء، ولكن سرعان ما تتحول لهبًا إذا اجتمع الثلاثة فى ظروف خاصة. وحتى فى المملكة العضوية، فإننا نرى البذرة الجافة تحتفظ بقوة الحياة الكامنة ثلاثة آلاف سنة، وحالما تجد الظروف الملائمة، فإنها تنمو لتصبح نباتًا» كذلك أدى وجود الضفادع البرية حية فى الأحجار الجيرية إلى الاستنتاج: حتى الحياة الحيوانية تكون قادرة على التوقف آلاف السنين^(٢)؛ فالإرادة هي إرادة الحياة، وعدوها الخالد هو الموت.

ولكن.. ألا تستطيع أن تهزم الموت أيضًا؟

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٢٩.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ١٧٨.



٢ - إرادة التناسل

بلى، يمكن أن تهزم الموت بالتناسل والتضحية من أجله.

فكل كائن طبيعى عند بلوغه مبلغ النضج يسارع فى التضحية بنفسه من أجل التناسل: وذلك ابتداء من ذكر العنكبوت الذى تأكله أنثاه عقب لقاحها، والزنبور الذى يكرس نفسه لجمع الغذاء لتجابه الذى لن يقدر له أن يراه، حتى الإنسان الذى يجهد نفسه حتى الفناء فى سبيل إطعام وكساء وتعليم أبنائه. والتناسل هو الهدف الأقصى لكل كائن، وغريزته الأقوى، لأنه بذلك فحسب يستطيع أن يهزم الموت. وحتى يكفل الانتصار على الموت، توضع إرادة التناسل كلها تقريباً موضعاً بعيداً عن سيطرة المعرفة أو التفكير: وحتى الفيلسوف يكون له أبناء أحياناً.

«وتظهر الإرادة هنا مستقلة عن المعرفة، وتعمل عملاً أعمى، كما يحدث فى الطبيعة اللاشعورية.. وتبعاً لذلك، تكون أعضاء التناسل هى بؤرة الإرادة تماماً، وتشكل القطب المقابل للمخ، الذى يمثل المعرفة... فالأولى أساس المحافظة على الحياة - وهى تكفل الحياة التى لا تنتهى؛ ولهذا السبب عبدها الأغريق فى Phallus والهندوس فى Lingam.. ولقد قال هزيود Hesiod وبارمينيدس Parmenides بكل ما فى قولهما من دلالة أن أيروس Eros هو الأول وهو الخالق، وهو الأصل الذى تنشأ عنه كل الأشياء. والعلاقة بين الجنسين... هى فى الحقيقة النقطة المركزية لكل الأعمال والسلوك، وتطل فى كل مكان بالرغم من كل الأقنعة المغلفة لها. وهى سبب الحرب ونهاية السلام؛ وأساس كل ما هو جاد، والغاية من المزاج، والمعين



الذى لا ينضب من المعرفة، ومفتاح التخيلات جميعاً، ومعنى كل الإشارات الغامضة^(١)... ونراها فى كل لحظة تتخذ مجلسها، سيدة للعالم باعتبارها الوريث الصحيح للعالم، ممثلة كل الامتلاء بقوتها الخاصة، فوق عرش الأسلاف، وتطل من هذا المكان بنظرة ملؤها السخرية، وتضحك من الترتيبات التى تتخذ لتقييدها، أو سجنها، أو تحديدها على الأقل، وإبقائها مخبأة، كلما أمكن ذلك، أو حتى للسيطرة عليها بحيث تبدو مجرد عامل ثانوى، تابع فى الحياة^(٢).

وتدور «ميتافيزيقات الحب» حول هذه التابعة التى يتبع فيها الأب الأم، وتابعة الوالدين للطفل، وتابعة الفرد للنوع. وقانون الجاذبية الجنسية يقتضى أولاً أن يكون اختيار الرفيق - إلى حد كبير - مقررًا، مهما كان ذلك بطريقة لاشعورية، باللياقة المشتركة للإنجاب.

«كل يبحث عن الرفيق الذى يكمل نقائصه، خشية أن تورث.. فالرجل الضعيف البنية يبحث عن امرأة قوية.. وسيعتبر كل فرد من الجمال بصفة خاصة كل ما يجده فى الطرف الآخر من أوجه الكمال التى تعوزه هو نفسه، بل حتى تلك النقائص التى تناقض نقائصه^(٣).» ويمكن أن تكون الصفات الجسدية لفردين بحيث تكفل استمرار النوع بأطول قدر ممكن، ومن ثم تكون الواحدة منها عند أحدهما

(١) وهذا ما قال به فرويد فيما بعد فى نظريته عن «الإدراك واللاشعور».

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٤٢٦، ٥٢٥، والمجلد الثالث ص ٣١٤. وليس شوبنهاور فى هذا الاكثيره ممن عانوا من المسائل الجنسية، ولذا يهول فى تصوير دور الحياة الجنسية، ولعل علاقة الأبوة فى عقول الأفراد الطبيعيين ترجح كفتها عن العلاقة الجنسية.

(٣) وهذا ما قال به فيما بعد فاينينجر Weininger.



المكملة والمتممة لتلك التى عند الآخر بصفة خاصة، ومن ثم تجعله يرغب فيها كلية.

«... والشعور العميق الذى نتأمل به ونفكر فى كل جزء من الجسم... والشك الحرج الذى نتطلع به إلى المرأة التى تبدأ فى إسعادنا... يتصرف المرء هنا، دون علم منه، بأمر صادر عن شىء أرقى منه... ويفقد كل فرد جاذبيته للجنس الآخر بنسبة ابتعاده أو ابتعادها عن أنسب الفترات للتناسل والحمل... ويظل الشباب دومًا ذا جاذبية بغض النظر عن الجمال، أما الجمال بلا شباب فلا جاذبية له... وفى كل حالة يقع فيها الحب... فإن كل ما يتجه إليه البحث فحسب هو إنتاج فرد ذى طبيعة محددة، وتؤيد ذلك حقيقة أولية وهى أن الأمر الجوهري ليس فى تبادل الحب بل فى الاستحواذ»^(١).

ومع ذلك، فليست هناك زيجات أبعد عن السعادة من تلك الزيجات القائمة على الحب - ويرجع سبب ذلك بصفة خاصة إلى أن هدفها هو استمرار النوع لا متعة الفرد^(٢). «فذلك الذى يتزوج على حب، لا بد أن يعيش حزينًا» - هذا ما يقول به المثل الأسباني السائد. وتبدو أغلب القصص التى كتبت عن مشكلة الزواج سخيفة لأنها تفكر فى الزواج على أنه ألفة ومحبة، بدلًا من التفكير فيه على أنه ترتيب يهدف إلى حفظ النوع. ويبدو أن الطبيعة لا يعنيه أن كان الأبوان «سعيدان أبد الدهر»، أم أن سعادتهما ليوم

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثالث - ص ٣٤٢، ٣٥٧، ٣٤٧، ٣٦٠، ٣٥٩، ٣٤١، ٣٥٢.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثالث - ص ٣٧٢.



واحد، طالما يتم التناسل. والزواج الملائم هو ذلك الذى يرتبه آباء المحبين، فهو غالبًا ما يكون أسعد من الزواج القائم على الحب. ومع ذلك فالمرأة التى تتزوج على حب مخالفة فى ذلك مشورة أبويها، لا بد من الإعجاب بها، إذ «إنها فضلت ما هو أكثر أهمية، وتصرفت بروح الطبيعة (والأدق أن يقال بوحى من الجنس أو النوع)، بينما ينصح الأبوان بروح الأنانية الفردية»^(١). .. والحب أحسن علوم التناسل.

وما دام الحب خدعة تدبرها الطبيعة، فإن الزواج هو ذوبان الحب، إذ عليه أن يزيل كل الخيالات والأوهام. ولا يمكن إلا للفيلسوف وحده أن يكون سعيدًا فى الحب؛ ولكن الفلاسفة لا يتزوجون.

«لأن العاطفة تعتمد على وهم يمثل ما ليست له قيمة سوى حفظ النوع الذى يعتبر ذا قيمة للفرد، ولكن الوهم يتبدد بعد تحقق غرض النوع. ويتبين للفرد أنه كان مخلب القط بالنسبة للنوع. ولو أشبعت عاطفة بترارك، لكف عن أغنيته»^(٢).

وتبعية الفرد للنوع كأداة لاستمرار، تبدو مرة أخرى فى الاعتماد الجلى من قبل حيوية الفرد على حالة الخلايا التناسلية.

«ويعتبر الدافع الجنسي كالحياة الداخلية للشجرة (النوع) التى تنمو عليها حياة الفرد، كما تتغذى الورقة من الشجرة وتساعد فى تغذية الشجرة، وهذا هو السبب فى أن ذلك الدافع يكون بكل هذه القوة، وينبثق من أعماق طبيعتنا. فليس معنى خصى أحد الأفراد إلا أنه

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثالث - ص ٣٧١.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثالث - ص ٢٧٠.



قطع من شجرة النوع التى ينمو عليها، ومن ثم فإنه يذبل ويدوى، ومن هنا يكون انحطاط قواه العقلية والجثمانية. ويدل ما يعقب خدمة النوع - أى القيام بالتلقيح - من إنهاك وانحطاط مؤقت فى كل القوى، وفى الحقيقة أن هذه الخدمة تنتهى بالموت السريع فى أغلب الحشرات. وفى ذلك يقول كيلسوس Celsus إن انقضاء قدرة الإنسان على التوالد تبين اقتراب موته^(١)؛ وأن الإفراط فى استخدام هذه القدرة فى كل سن يقصر الحياة، بينما الاعتدال فى هذه الناحية يزيد كل القوى وخاصة تلك العضلية، وقد وضع هذا الأمر فى الحسبان عند تدريب الرياضيين الإغريق. ويطيل مثل هذا الاعتدال حياة الحشرة حتى الربيع التالى، وكل هذا يشير إلى أن حياة الفرد هى فى أعماقها مستعارة فحسب من حياة النوع.. فالتناسل هو الذروة العليا وبعد تحقيقه تنتهى حياة الفرد الأول بسرعة أو ببطء، بينما تكفل حياة جديدة للطبيعة بقاء النوع، وتكرر نفس الظاهرة... وهكذا يكون تبادل الموت والتوالد بمثابة نبضات القلب بالنسبة للنوع... والموت بالنسبة للنوع كالنوم للفرد... وهذا هو قانون الطبيعة الأعظم عن الخلود... لأن العالم كله، بكل ظواهره، هو الجانب المحسوس للإرادة التى لا تتجزأ، وهى الفكرة التى ترتبط بكل الأفكار الأخرى كما يرتبط التوافق النغمى بالصوت الواحد.. وفى محادثات أكرمان مع جيته (ج ١ ص ١٦١).. يقول جيته: «أن روحنا كائن له طبيعة تستعصى على الفناء، ويستمر نشاطها من الأزلية إلى الأبدية. فهى كالشمس التى تبدو تغرب أمام ناظرينا

(١) Seminis emission est parties Jactura.



فحسب؛ ولكنها في الحقيقة لا تغرب أبداً، بل تظل مستمرة الإشراق. وهذا التشبيه أخذه جيته عنى ولم أخذه - أنا - عنه»^(١).

ونحن لا ندو كائنات منفصلة إلا في الزمان والمكان فحسب، فمنهما يتكون «مبدأ الانفصال الفردى» الذى يقسم الحياة إلى كائنات منفصلة تبدو في فترات وأماكن مختلفة، والزمان والمكان قناع مايا Maya الذى يخفى وحدة الأشياء. وليس في الحقيقة من شىء سوى النوع وسوى الحياة وسوى الإرادة. «ولكى نفهم بوضوح أن الفرد ليس سوى الظاهرة، لا الشىء فى ذاته» وأن نرى فى «التغير الدائم للمادة ثبات دائم للشكل» - فهذا هو جوهر الفلسفة^(٢).

«ويستمر شعار التاريخ: الأشياء ذاتها، وإنما فى أشكال متغيرة: Fadem, sed aliter وكلما تغيرت الأشكال كلما بقيت كما هى»^(٣).

«فذلك الذى لم يبد له الناس وكل الأشياء فى أى من الأوقات إلا مجرد أشباح وخيالات، وليست له ملكة الفلسفة. فالفلسفة الحقيقية للتاريخ تقوم على إدراك أنه فى جميع التغيرات التى لا تنتهى والتعقدات الشديدة فى الأحداث، لا يكون أماننا إلا الكائن الذى لا يستطيع أن يغير نفسه بنفسه، والذى يسير اليوم نحو نفس الأهداف التى سار عليها بالأمس والتى سيظل يسير عليها إلى الأبد... وتبعاً لذلك، كان على فيلسوف التاريخ أن يعترف بالطابع المميز فى جميع الأحداث... وبالرغم من كل تنوع فى الظروف الخاصة

(١) العالم إرادة وتخيّل - المجلد الثالث - ص ٣١٠، المجلد الأول - ص ٢١٤ - المجلد الثالث - ص ٣١٢، ٢٧٠، ٢٦٧، المجلد الأول - ص ٢٠٦، ٣٦٢.

(٢) العالم إرادة وتخيّل - المجلد الأول - ص ٣٥٧ - ٣٥٨.

(٣) العالم إرادة وتخيّل - المجلد الثالث - ص ٢٢٧. «نفس الأشياء، ولكن بأشكال مختلفة».



أو العادات والتقاليد والسلوك، فعليه أن يرى فى كل مكان نفس البشر... فقراءة ما كتبه هيرودوت Herodotus هى، من وجهة النظر الفلسفية، دراسة كافية من التاريخ... والرمز الحقيقى للطبيعة فى كل زمان ومكان إنما هو الدائرة، لأنها منهج التكرار وبيانه»^(١).

ونود أن نعتقد أن التاريخ كله ليس إلا إعداد ناقص وموقف للعصر الرائع الذى نحن منه المصلح والقمة؛ ولكن هذه الملاحظة عن التقدم ليست إلا مجرد خدعة وحماسة. «فالحكماء بصفة عامة كانوا يقولون فى جميع العصور نفس الأشياء، والحمقى - الذين يؤلفون الأغلبية العظمى فى جميع الأزمان - كانوا يتصرفون فى طريقتهم بصورة متماثلة أيضًا، إذ فعلوا عكس ما فعله الحكماء، وهكذا سوف يستمر الأمر.

لأننا - كما قال فولتير - سترك العالم فى الحماسة والشقاء اللذين وجدناه عليهما»^(٢).

وعلى ضوء كل هذا نحصل على معنى جديد أكثر كآبة عن الحقيقة التى لا مهرب منها عن الحتمية. «يقول اسبينوزا أنه لو كان ثمة شعور لدى الحجر الذى يلقى فى الهواء لاعتقد أنه يتحرك بمحض إرادته الحرة. ولا أضيف إلى هذا إلا أن الحجر فى هذا يكون على حق، فالدافع الذى أعطى للحجر - هو بالنسبة للحجر - كالدافع بالنسبة لى، وليس ما يبدو فى الحجر تماسكًا وجاذبية وصلابة.. ليس فى

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثالث - ص ٢٢٧، ٢٦٧. وهذا ما تحدث عنه نيتشه فيما بعد.

(٢) مقدمة «حكمة الحياة».



جوهره إلا ما اعترف به كذلك فى نفسى، بل لو كان للحجر معرفة لا اعترف بأنها الإرادة»^(١). ولكن الإرادة ليست «حرة» فى الحجر ولا فى الفيلسوف. فالإرادة حرة ككل.. لأنه ليست هناك إرادة أخرى بجانبها تحد من قوتها، ولكن كل جزء من الإرادة العامة - كل نوع وكل كائن وكل عضو - يتحدد بما يقرره الكل تحديداً لا ينقضى ولا ينسخ.

«ويعتقد كل واحد فى نفسه قبل كل شىء إنه حر كل الحرية، حتى فى أعماله الفردية، ويظن إنه يستطيع فى كل لحظة أن يبدأ طريقة جديدة فى الحياة، وهذا لا يعنى إلا أنه يستطيع أن يصبح شخصاً آخر. ولكنه يجد بعد ذلك من خلال التجربة أمراً يدهشه، وهو أنه ليس حراً، بل يخضع للضرورة، وإنه لا يغير سلوكه بالرغم من كل ما يتخذه من قرارات وتأملات، وإنه من بداية حياته حتى نهايتها، يجب أن يحمل نفس الطابع الذى ينتقده هو نفسه، ويستمر كما كان الحال من قبل، يلعب الدور الذى سبق أن لعبه، حتى النهاية»^(٢).



(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثانى - ص ١٦٤.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ١٤٧.



العالم شر

ولكن إذا كان العالم إرادة، فلا بد أن يكون عالم عناء وآلام. وذلك أولاً لأن الإرادة ذاتها تدل على الحاجة، وإشباع هذه الحاجة أكبر دائماً مما تصل إليه؛ إذ أنه بعد إشباع كل رغبة تبقى عشر رغبات لم تشبع. والرغبة لا تنتهى، والإشباع محدودة، ومن ثم «فهى كالأحسان الذى يعطى إلى الشحاذ ليبقى عليه حياته ليومه حتى يمكن أن يمتد شقاؤه إلى الغد... وطالما امتلأ وعينا بإرادتنا، ظللنا أسرى إلحاح رغباتنا بآمالها ومخاوفها المستمرة، وطالما خضعنا للإرادة، فلا نستطيع الاستمتاع بدوام السعادة أو السلام»^(١)، وتحقيق الرغبة لا يستتبع الاكتفاء والرضى، إذ ليس هناك ما هو أكثر خطورة على المثل من تحقيقه. «وغالباً ما يؤدي إشباع الرغبة إلى الشقاء لا إلى السعادة، لأن مطالبها غالباً ما تتصارع فى عنف مع المصالح الشخصية لذلك الذى أشبعته رغبته حتى تودى بها»^(٢). ويحمل كل فرد فى نفسه تناقضاً مخرباً، فالرغبة التى تتحقق تخلق رغبة جديدة، وهكذا إلى

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٢٥٣.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثالث - ص ٣٦٨.



ما لا نهاية له. «وعلة هذا إن الإرادة يجب أن تعيش على نفسها، لأنه لا وجود لشيء بجانبها، وهى إرادة جائعة»^(١).

وفى كل فرد، نجد أن طاقة الألم الضرورى له تقررهما طبيعته مرة واحدة، وهى أشبه بكيل لا يمكن أن يبقى خاليًا، أو أن يمتلأ أكثر مما يجب... ولو انزاحت عن صدورنا هموم مرهقة عاجلة، لحلت محلها على الفور هموم أخرى، كانت مادتها كلها موجودة من قبل، ولكنها لم تخرج همومًا إلى دائرة الوعي إذ لم تكن ثمت طاقة قد تركت لها.. أما الآن وقد وجد لها المكان فهى تتقدم وتحتل العرش^(٢).

والحياة شر مرة أخرى لأن الألم هدفها ودافعها الأساسى وحقيقتها، وليست اللذة إلا مجرد وقف سلبى للألم. وقد كان أرسطو محققًا عندما قال: أن الحكيم لا يبحث عن اللذة، بل التخلص من الهم والألم.

«فكل إشباع، أو ما يسمى عامة بالسعادة، لا يكون فى الحقيقة وفى الجوهر إلا سلبًا.. ولا ندرك إدراكًا حقيقيًا النعماء والمزايا التى تكون فى حوزتنا فعلًا، ولا نقدرها حق قدرها، بل نراها مجرد أمر واقع، لأنها لا تشبعنا إلا سلبًا، وذلك بوقفها للشقاء والألم. ولا نشعر بقيمتها إلا عندما نفقدها، لأن الحاجة والحرمان والحزن ليست إلا للشيء الإيجابى الذى يصل نفسه بنا مباشرة... فما ذلك الذى أدى بالكليبين إلى إنكار اللذة فى أى شكل من أشكالها، إن لم يكن ذلك أن الألم مرتبط دائمًا باللذة بدرجة كبرت أو صفوت؟... ويعبر عن

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٢٠١.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٤٠٩.



هذه الحقيقة ذاتها المثل الفرنسى الذى يقول: الأفضل عدو الفاضل
Le mieux est l'ennemi bien فدع الأفضل وشأنه^(١).

والحياة شر لأنه «حالما تسمح الحاجة والعناء للمرء بالراحة،
اقترب منه الضجر على الفور بحيث يصير بالضرورة فى حاجة إلى
التسلية»^(٢) - أى المزيد من العناء. حتى لو تحققت المدينة الفاضلة
الاشتراكية، لبقيت شرور عديدة، لأن بعضها - مثل الكفاح - ضرورى
للحياة، ولو أزيح كل شر، وانتهى كل كفاح، لأصبح الملل كالآلم
لا يحتمل. وهكذا «تأرجح الحياة كبندول الساعة إلى الخلف
وإلى الأمام بين الآلم والضجر... وبعد أن حول الإنسان كل الآلام
والعذاب إلى مفهوم الجحيم، لم يبق للجنة سوى الضجر»^(٣). وكما
ازددنا نجاحًا ازددنا مللاً. «وكما أن الحاجة هى السوط الذى يلهب
الناس دائماً، فإن الضجر هو السوط الذى يلهب العالم النموذجى.
ويتمثل الضجر عند الطبقة الوسطى فى أيام الأحاد. وتتمثل الحاجة
فى بقية أيام الأسبوع»^(٤).

والحياة شر لأنه كلما ارتقى النظام زاد الشقاء. ونمو المعرفة ليس
حلاً.. «لأنه عندما تصبح ظاهرة الإرادة أكثر كمالاً، يصبح الشقاء
أكثر وأكثر ظهوراً».

«وليس فى النبات حتى الآن حساسية، ولذا فليس من ألم لديه. أما

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٤١١، حكم وأمثال - ص ٥.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٤٠٤.

(٣) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٤٠٢.

(٤) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٤٠٤.



أحط أنواع الحياة الحيوانية - مثل الهدبية والمشعة^(١) - فتعانى درجة ضئيلة جدًا من الألم، وكذلك فى الحشرات تكون طاقة الإحساس والشقاء لديها لا تزال محدودة. ويبدو الإحساس أول ما يبدأ بدرجة كبيرة بظهور الجهاز العصبى الكامل فى الحيوانات الفقارية، وتزداد درجة الإحساس مع زيادة نمو الذكاء. وكلما زادت المعرفة وارتقى الوعى زاد الألم أيضًا بتناسب طردى حتى يصل إلى أعلى درجاته فى الإنسان. ومرة أخرى، نجد إنه كلما تميز الإنسان فى المعرفة - وكلما زاد ذكاؤه - كلما زاد ألمه، وأشد الناس شقاء ذلك الموهوب بالعبقريّة.^(٢)

ومن ثم كان ذلك الذى يزداد معرفة، يزداد حزنًا. وحتى الذاكرة وبعد النظر تضيفان للبشرية شقاء، لأن أغلب ما نعانیه هو فى التأمل فى الماضى وفى توقع المستقبل، أما الألم ذاته فقصور الأمد. ولكم يزداد الشقاء بالتفكير فى الموت عما يعانیه المرء من الموت نفسه. وأخيرًا، وقبل كل شىء، الحياة شر لأن الحياة حرب؛ فإننا نرى فى كل مكان فى الطبيعة الصراع والتنافس والنزاع، وتعاقب النصر والهزيمة تعاقبًا انتحاريًا. فكل نوع «يكافح فى سبيل المادة والمكان والزمان الذى يكون هو للآخرين».

«فالأفعوان (الهيدرا) الصغير الذى ينمو كأنه برعم خارج من الأفعوان الكبير، ويفصل نفسه عن الكبير، يكافح - وهو لا يزال مرتبطًا بالأفعوان الكبير - فى سبيل الحصول على الفريسة التى

(١) Infusoria, Radiata

(٢) العالم إرادة وتخيّل - المجلد الأول - ص ٤٠٠.



تقدم نفسها، إلى حد أن الواحد من هذه الأفاعى يتتزع الفريسة من فم الآخر. ولكن النمل الأسترالى الكبير يقدم لنا أغرب مثل لهذا النوع، لأنه إذا انقسم إلى شطرين، تقوم معركة بين الرأس والذنب. ويمسك الرأس الذنب بأسنانه، ويدافع الذنب عن نفسه بشجاعة بلسع الرأس. وقد تستمر المعركة نصف ساعة حتى يموتا أو يجرحهما النمل الآخر. ويحدث هذا الصراع كلما وقعت هذه التجربة... ويذكر يونجهان Yunghahn أنه رأى فى جاوه سهلاً فسيحاً على مرمى البصر، وهو مغطى كله بهياكل عظمية، وظن أنه ميدان قتال، إلا أن هذه الهياكل لم تكن سوى هياكل سلاحف ضخمة... كانت قد خرجت من البحر فى ذلك الطريق لتضع بيضها، فهاجمتها الكلاب المتوحشة التى استجمعت قوتها فأرقدتها على ظهورها، وانتزعت القوقعة الصغيرة من المعدة، والتهمتها حية... ولكن غالباً ما يقفز نمر على الكلاب... ومن ثم ولدت هذه السلاحف... وهكذا تعيش إرادة الحياة فى كل مكان على نفسها.. وهى غذاء نفسها فى أشكال مختلفة، حتى نصل أخيراً إلى الجنس البشرى الذى يخضع جميع الأنواع الأخرى، ويعتبر الطبيعة مصنعة لاستخدامه الخاص. ومع ذلك فحتى الجنس البشرى... يكشف بنفسه فى وضوح عن هذا الصراع الرهيب الذى يقع نتيجة اختلاف الإرادة مع نفسها! وسوف نجد أن الرجل للرجل ذئب *home homini lupus*^(١).

والصورة الإجمالية للحياة غالباً ما تكون شديدة الإيلام بدرجة لا يتصورها العقل، وتعتمد الحياة على عدم معرفتنا إياها حق المعرفة.

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ١٩٢، المجلد الثالث - ص ١١٢، المجلد الأول - ص ١٩١.



«وإذا كان علينا أن نستحضر أمام بصر الإنسان ذينك الشقاء والبؤس الرهيبين اللذين تتعرض لهما حياته باستمرار، لاستبد به الفزع، ولو أنه كان علينا أن نقود المتفائل الراسخ فى تفاؤله إلى المستشفيات، وملاجئ العجزة، وغرف العمليات الجراحية، وأدخلناه السجون، وغرف التعذيب، وأوجار العبيد، ومررنا به فوق ميادين القتال، وساحات الإعدام، ولو فتحنا له المأوى المظلمة التى يختفى فيها الشقاء من نظرات الفضول الباردة، وأخيراً لو سمحنا له بأن يطل على كهوف الجائعين فى أوجولينو golino لفهم أخيراً طبيعة «هذا العالم الذى هو خير العوالم» إذ: من أين استقى دانتى Dante مادة ملحمة عن الجحيم؛ اللهم ألا من عالمنا الواقعى؟ ومع ذلك فقد صاغ منها جحيماً كاملاً جداً. ولكنه عندما جاء - فى الناحية الأخرى - لوصف الجنة ومباهجها واجهته صعوبة لا يمكن التغلب عليها، لأن عالمنا لا يتيح أية مادة لهذا... ولا تستطيع ملحمة أو رواية شعرية أن تمثل سوى الصراع والجهد - والكفاح فى سبيل السعادة؛ لا السعادة الدائمة الكاملة الدائمة ذاتها. وتمضى الرواية أو الملحمة بأبطالها خلال آلاف الأخطار والمصاعب فى الطريق إلى الهدف؛ وحالما يبلغون الهدف تسرع الستارة بالانسداد؛ لأنه لم يعد هناك شىء لتظهره إلا أن تبين أن الهدف البراق الذى توقع البطل أن يجد فيه السعادة لم يجد عنده إلا خيبة الأمل فحسب، إذ أنه بعد أن بلغ الهدف لم يصبح أسعد حالاً عما كان عليه قبل ذلك»^(١).

ونحن أشقياء إذا تزوجنا، وإذا لم نتزوج فنحن أشقياء. ونحن

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٤١٩، ٤١٣.



أشقياء عندما نكون وحدنا، وأشقياء عندما نكون فى مجتمع: ونحن كالقناقد تتجمع للدفع، إلا أنها لا تشعر بالراحة عندما يتم التفافها للغاية، ومع ذلك فهى تعسة لو بقيت متباعدة بعضها عن البعض الآخر. والأمر كله مضحك جداً؛ «وحياة كل فرد - إذ بحثناها فى مجملها... وقصرنا اهتمامنا فحسب على أهم ملامحها - فهى فى الحقيقة مأساة دائماً، أما إذا بحثناها تفصيلاً لوجدناها تحمل طابع الملهاة»^(١). فلتفكر فى هذا:

«عندما يدخل طفل فى الخامسة من عمره مغزلاً أو أى مصنع آخر، ومن ذلك الوقت فصاعداً يبقى فى المصنع يوماً عشر ساعات فى البداية ثم اثنتى عشرة ساعة، وأخيراً أربع عشرة ساعة، وهو يؤدى نفس العمل الآلى ياله من ثمن غال لإشباع الحاجة إلى التنفس. ولكن ذلك مصير الملايين، وهناك ملايين أخرى تشبه هذه الملايين... ومرة أخرى تكمن تحت القشرة المحكمة لهذا الكوكب قوى شديدة للطبيعة؛ التى، حالما تجد فى حادث ما مجالاً للانطلاق، تحطم بالضرورة هذه القشرة بكل ما يعيش فوقها، كما حدث من قبل ثلاث مرات على الأقل فوق كوكبنا، وقد يحدث بعد الآن أكثر من هذه المرات. وليس زلزال لشبونة Lisbon، وزلزال هاييتى Habti وخراب بومبى، سوى إشارات طفيفة لما هو محتمل»^(٢).

وإزاء كل هذا، يعد «التفائل سخريه مريرة من أحزان الإنسان»^(٣)؛ ولا نستطيع أن نصف ربوية لا ينتس بأنها كشف منهجى واسع عن

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٤١٥.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثالث - ص ٣٨٩ - ٣٩٥.

(٣) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٤٢٠.



التفاؤل. وأى فضل أكثر من أنه أتاح الفرصة حتى تظهر بعد ذلك قصة «كانديدا» للكاتب العظيم فولتير، حيث تلقت المعاذير المتكررة العرجاء التي التمسها للشر فى العالم - من أن الخبيث قد يأتى بالطيب أحياناً - تأييداً لم يكن لا ينتس نفسه يتوقعه»^(١). وموجز القول «إن طبيعة الحياة فى الصور التى تقدم بها نفسها لنا كأنما هى مقصودة ومدبرة، بحيث توظف فىنا الاعتقاد بأنه ليس فيها شىء يستحق كفاحنا أو جهودنا أو صراعنا فى سبيله، وأن ما هو منها إنما هو عبث، والعالم فاشل فى كل ما يرمى إليه، بل أن الحياة ليست إلا صفقة خاسرة لا تغطى تكاليفها»^(٢).

ولكى يكون المرء سعيداً يجب أن يكون فى جهالة الشباب الذى يرى إن الإرادة والكفاح مباهج، لأنه لم يتبين بعد التعب الذى يعانى به المرء من عدم إشباع الرغبة، وأن تحقيق الرغبة لا يأتى بثمره، بل إنه لم ير بعد أن الهزيمة حتمية لا مفر منها.

«ويرجع بعض مرح الشباب وحيويته إلى أننا عندما نصعد تل الحياة، لا يكون الموت مرئياً، إذ يكون قائماً فى الجانب الآخر من سفح التل... حتى إذا قاربت الحياة من نهايتها، كان كل يوم نعيشه يشير فىنا نفس الإحساس الذى يشعر به المجرم مع كل خطوة يخطوها نحو المشنقة.. وإذا ما أراد المرء أن يرى كم فى الحياة قصيرة، فيجب أن يكون قد عاش طويلاً... وحتى السادسة والثلاثين من أعمارنا يمكن مقارنتنا، من ناحية الطريقة التى تستخدم بها نشاطنا الحيوى، بأولئك

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثالث - ص ٣٩٤.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثالث - ص ٣٨٣.



الذين يعيشون على فائدة أموالهم، فما يبذلونه اليوم يحصلون عليه ثانية فى غدهم. أما بعد السادسة والثلاثين من العمر، فيكون موقفنا كموقف ذلك المستثمر الذى يبدأ فى الإنفاق من رأس المال... وهذا الخوف من الكارثة هو الذى يزيد حب الملكية مع تقدم السن... فليس الشباب هو أسعد فترات الحياة، بل هناك حقيقة أكثر صدقاً من هذا فى الملاحظة التى ذكرها أفلاطون فى بداية «الجمهورية»، وهى أن الجائزة يجب أن تكون من نصيب الشيخوخة، لأن الإنسان فى هذا الوقت يكون قد تحرر أخيراً من العاطفة الحيوانية التى لم تكن قد كفت عن إزعاجه حتى ذلك الوقت... ومع هذا يجب ألا ننسى أنه عندما تنطفئ هذه العاطفة، يكون الجوهر الحقيقى للحياة قد ذهب، ولم يعد يبقى منها سوى الصدفة الخالية؛ أو حسب وجهة نظر أخرى، تصبح الحياة عندئذ أشبه بكميديا بدأت بممثلين حقيقيين، ثم تستمر حتى إذا ما بلغت النهاية ألفينا دمية ترتدى ثياب الممثلين»^(١).

وفى النهاية، نواجه الموت. وفى الوقت الذى تبدأ فيه الخبرة فى تنسيق نفسها مع الحكمة، يأخذ الذهن والجسد فى الضعف والهزال. وببطء كل شىء للحظة فحسب، ثم يسرع فى طريقه إلى الموت^(٢). فإذا تأجل وقت الموت، فإنما يكون ذلك لكى يعبث بنا كما يعبث القط بفأر لا حول له ولا قوة. «وإنه لمن الواضح أنه: كما أن المشى معترف به على أنه ليس إلا منع دائم للوقوع، فكذا حياة أجسامنا ليست سوى منع مستمر للموت، موت مؤجل دائماً»^(٣). «ومن بين

(١) حكم وأمثال - ص ١٢٤ - ١٣٩.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثانى - ص ٤٥٤، المجلد الثالث - ص ٢٦٩.

(٣) حكم وأمثال - ص ٢٨، ملاحظة.



الزخارف والزينات الرائعة التي كانت لطغاة الشرق، فثمت قارورة من السم غالية الثمن دائماً^(١). فالفلسفة الشرقية تفهم أن الموت حاضر دائماً. وتقدم لطالبي هذه الفلسفة تلك الناحية الهادئة والبطء الكريم في السلوك مما ينجم عن إدراكهم لقصر الوجود الشخصي. والخوف من الموت هو بداية الفلسفة، والسبب الأصلي للدين. ولا يستطيع الرجل العادي أن يتقبل الموت في استسلام، ومن ثم راح يصنع فلسفات وعلوم دينية لا حصر لها، بل إن الاعتقاد الذي يسود عن الخلود ما هو إلا برهان على الخوف الرهيب من الموت. وكما أن اللاهوت ملجأ من الموت، فكذلك الجنون ملجأ من الألم، إذ «يأتى الجنون كطريقة لتخليص الذاكرة من الشقاء»^(٢)؛ وهو ليس إلا قطعاً يحدث في خيط الشعور؛ فنحن لا نستطيع التغلب على بعض التجارب أو المخاوف إلا بتجاهلها.

«لكم نفكر على غير رغبة في أشياء تضر بمصالحنا ضرراً شديداً، وتجرح كبرياءنا أو تتعارض مع رغباتنا، فما أصعب أن نصر على وضع هذه الأشياء أمام عقولنا لبحثها بحثاً جدياً دقيقاً.. ففي تلك المقاومة للإرادة - لكى تسمح - لما يناقضها.. بأن يوضع تحت بحث العقل، يجد الجنون منفذاً إلى العقل.. فإذا بلغت مقاومة الإرادة لإدراك بعض المعارف، إذا ما بلغت درجة لا تتم معها عملية الإدراك بصورة كاملة، عندئذ تصبح بعض العناصر أو الظروف مكبوتة تماماً في العقل لأن الإرادة لا تستطيع تحمل رؤيتها. وعندئذ تنجم فجوات

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ١١٩.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٢٥٠.



يتحتم ملؤها كما تهوى الإرادة، ومن ثم يبدو الجنون. لأن العقل يكون قد تخلى عن طبيعته إرضاء للإرادة، فيتخيل الإنسان الآن مالا وجود له. ومع ذلك فالجنون الذى ينشأ هكذا يكون أحد روافد شقاء غير محتمل إذ يكون آخر علاج للطبيعة المنهكة أى للإرادة^(١).

والملجأ الأخير هو الانتحار. ومن الغريب أن نقول هنا إن الفكر والخيال ينتصران أخيراً على الغريزة، وقد يقال أن ديوجنيس Diogenes وضع لها نهاية لحياته بأن رفض التنفس؛ فياله من انتصار على إرادة الحياة! ولكن هذا النصر ليس إلا مجرد انتصار فردى، إذ تستمر الإرادة فى حياة النوع. وتضحك الحياة من الانتحار، وتبتسم للموت؛ ففى مقابل كل وفاة تحدث عن عمد فثمت آلاف من المواليد ترد إلى الحياة من غير عمد. «فالانتحار، هو التخطيط المقصود لظاهرة الوجود المفردة، عمل تافه أحق، إذ أن الشيء فى ذاته - أى النوع والحياة والإرادة عامة - تبقى كلها دون أن تتأثر به، وتظل كقوس قزح الذى يبقى حتى اللحظة التى يتحين فيها الفرصة للسقوط مهما كانت سرعة نقط المياه التى يقوم عليها القوس فى تكوينه»^(٢). ويستمر الشقاء والصراع بعد وفاة الفرد، بل يجب أن يستمر طالما سيطرت الإرادة على الإنسان. ولا يمكن أن يكون هناك انتصار على شرور الحياة حتى تخضع الإرادة خضوعاً تاماً للمعرفة والعقل.

(١) العالم إرادة وتخيّل - المجلد الثالث - ص ١٦٧ - ١٦٩. وهذا ما قال به فرويد فيما بعد.

(٢) العالم إرادة وتخيّل - المجلد الأول - ص ٥١٥.



حكمة الحياة

١- الفلسفة

نأمل أولاً وقبل كل شيء في سحق الرغبة حين ترنو إلى الأشياء المادية، فقد يظن الحمقى إنهم إذا هم حققوا لأنفسهم الثراء لاستطاعوا بذلك إشباع إرادتهم إشباعاً تاماً؛ إذ إنهم يفترضون أن الرجل الثرى رجل له من الوسائل ما يكفل له تحقيق كل رغبة من رغباته. «وغالباً ما يلام الناس لرغبتهم في المال قبل كل ما عداه من أشياء، ولحبهم إياه الذي يفوق حبهم لأي شيء آخر، ولكنه من الطبيعي بل ومما لا بد منه للناس أن يحبوا ذلك الذي يكون على استعداد دائم لتحويل نفسه - شأنه في ذلك شأن بروتوس Proteus الذي لا يتعب قط - إلى أي شيء تتجه إليه رغباتهم الضالة، أو رغباتهم المتعددة الحنايا. أما ما عدا ذلك، فلا يشبع سوى رغبة واحدة، والمال وحده هو الصالح لكل شيء صلاحية مطلقة... لأنه الإشباع المعنوي لكل رغبة»^(١). ومع ذلك، فإننا نوقن أن الحياة التي تكرر لجوع الثروة تكون عديمة النفع ما لم نعرف كيف نحولها إلى متعة، وهذا فن يتطلب ثقافة وحكمة. وتكاد الرغبات الحسية ألا

(١) الحواشي والبواقي «حكمة الحياة» - ص ٤٧.



تشبع أبداً، مما يوجب على المرء أن يفهم أهداف الحياة كما يفهم فن الحصول على المال».

«ويهتم الناس بأن يصبحوا أثرياء أكثر من اهتمامهم بالثقافة ألف مرة، وأن كان من المؤكد تماماً أن ما يكون عليه المرء يساهم في إسعاده أكثر مما قد يكون لديه»^(١)، «فالرجل الذى ليست له حاجيات عقلية لا يعرف ماذا يفعل بوقت فراغه، فالفراغ التام ممل^(٢) وهو يبحث فى شراهة من مكان إلى مكان عن مشيرات جديدة، ثم يغلب عليه أخيراً الضجر الذى هو انتقام الآلهة من الأغنياء المتعطلين^(٣)».

فالطريق إلى السعادة ليس بالثروة بل باتباع الحكمة. «فالإنسان هو الجهد العنيف الذى تبذله الإرادة (التي يعد الجهاز التناسلى بؤرتها)، والموضوع الخالد الحر السامى الذى يخضع للمعرفة الخاصة (وبؤرتها الذهن)^(٤). ومن العجيب أن نقول إن المعرفة - وأن كانت وليدة الإرادة، فقد تسيطر على الإرادة. ويبدو إمكانية استقلال المعرفة أولاً فى الطريقة الحيادية التى يستجيب بها العقل أحياناً لما تمليه الرغبة». «وأحياناً يرفض العقل إطاعة الإرادة؛ ومثال ذلك عند ما نحاول عبثاً أن نركز عقولنا على شىء، أو عندما نسترجع عبثاً ذكرى شىء قد أودعناه إياها. ويتجلى من غضب الإرادة على العقل فى مثل هذه المناسبات وضوح صلتها به والفرق بين كل منهما، فالعقل إذ يرتبك ويقع فى حيرة نتيجة للغضب، يأتى بما كان

(١) الحواشى والبواقى «حكمة الحياة» - ص ١١.

(٢) Difficilis in otio quies. الحواشى والبواقى - «حكمة الحياة» - ص ٣٩.

(٣) الحواشى والبواقى - «حكمة الحياة» - ص ٢٢.

(٤) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٢٦٢.



قد طلب منه قبل ساعات، بل قد يحدث ذلك فى الصباح التالى على غير انتظار ودون موعد»^(١). ومن هذه الفائدة غير الكاملة قد ينتقل العقل إلى حالة السيطرة الكاملة. «وطبقاً لتأمل سابق أو ضرورة معترف بها - يعانى المرء، أو يحقق ببرود، ما يكون ذا أهمية كبرى وما تكون له غالباً أهمية رهيبية: مثل الانتحار، والإعدام، والمبارزة، وكل عملية محفوفة بالخطر على الحياة من أى نوع وأشياء أخرى تثور عليها كل طبيعته الحيوانية. وفى مثل هذه الظروف نرى إلى أى مدى يكون العقل قد سيطر على الطبيعة الحيوانية»^(٢).

وهذه القوة التى للعقل على الإرادة تسمح بالنمو المتبصر، ويمكن بالمعرفة جعل الرغبة معتدلة أو هادئة، كما يمكن الوصول إلى ذلك أيضاً بالفلسفة الحتمية التى تعترف بأن كل شىء ليس إلا نتيجة حتمية لما سبقه.

«ومن بين كل عشرة أشياء تثير مضايقتنا، لن تستطيع تسعة منها أن تفعل ذلك إذا ما فهمناها فهماً تاماً بأسبابها، وعرفنا بهذا ضرورتها وطبيعتها الحققة.. لأنه كما يكون اللجام للجواد الشرس يكون العقل بالنسبة للإرادة فى الإنسان»^(٣). «ولن ينجح شىء فى التوفيق تماماً، بين الضرورة الداخلية والخارجية كما تفعل المعرفة الواضحة»^(٤). «وكلما زادت معرفتنا بعواطفنا، قلت سيطرتها علينا؛ ولا شىء

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثانى - ص ٤٣٩.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ١١٢.

(٣) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثانى - ص ٤٢٦.

(٤) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٣٩٦.



يحمينا من الاضطراب الخارجى مثل سيطرتنا على أنفسنا»^(١) فإذا استطعت أن تخضع كل الأشياء لنفسك، فاخضع نفسك للعقل»^(٢) (سينيكا) - وليس أعظم العجائب هو من ينتصر على العالم كله، بل ذلك الذى يخضع نفسه.

وهكذا تظهر الفلسفة الإرادة. ولكن يجب أن تفهم الفلسفة على إنها خبرة وفكر - لا مجرد اطلاع أو دراسة سلبية.

«إن استمرار انسياب أفكار الآخرين يجب أن يحبس ويكبت أفكارنا نحن، بل يشل مع الزمن قدرتنا على التفكير... ويميل أغلب العلماء إلى أن يكونوا مجرد نوع من آلات الامتصاص Fugav acui نتيجة لفقر عقولهم التى تجتذب إليها أفكار الآخرين عنوة... ومن الخطر أن نقرأ عن موضوع قبل أن نكون قد فكرنا فيه نحن بأنفسنا.. فإننا حينما نقرأ، نجعل شخصاً آخر يفكر لنا، ونكتفى نحن بأن نردد عملياته العقلية.. وهكذا نأتى إلى نتيجة هى أنه إذا ما صرف فرد طول يومه فى القراءة، فإنه يفقد تدريجياً قدرته على التفكير... ويمكن اعتبار خبرة العالم كلها على أنها نوع من النصوص، لا يكون التأمل والمعرفة إلا تعليقاً عليها. وكلما كان هناك الكثير من التأمل والمعرفة العقلية، وقليل جداً من الخبرة، تكون النتيجة أشبه بتلك الكتب التى يكون فى كل صفحة من صفحاتها سطران من النص وأربعون سطراً تعليقاً»^(٣).

(١) حكم وأمثال - ص ٥١.

(٢) Si vis omnia subjicere, sujice te rationi.

(٣) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثانى - ٥٢٤، الحواشى والبواقي «عن الكتب والقراءة»، حكم وأمثال - ص ٢١.



والنصيحة الأولى إذن هي الحياة قبل الكتب، والنصيحة التالية هي النص قبل التعليق. وعليك أن تقرأ آثار المبدعين، لا العارضين والنقاد. «فإننا لا نستطيع أن نتلقى الأفكار الفلسفية إلا عن المؤلفين أنفسهم. ومن ثم، كان على من يشعر في نفسه انجذابًا نحو الفلسفة أن يبحث عن معلمها الخالدين في معبد أعمالهم الهادئ»^(١) - فإن ما ينتجه العبقري من عمل يساوى ألف تعليق.

وفى نطاق هذه الحدود، تكون متابعة الثقافة ذات قيمة، حتى لو جاءت عن طريق الكتب، لأن سعادتنا تتوقف على ما يكون فى رؤوسنا لا على ما فى جيوبنا، أما الشهرة فليست إلا حماقة «إذ أن رؤوس الآخرين ليست إلا أسوأ مكان يختاره المرء مقامًا لسعادته الحقّة»^(٢).

وأن ما يمكن أن يكونه إنسان لا مرئ آخر لن يكون كثيرًا، إذ إن كل واحد سيقف وحده فى نهاية الأمر، والأمر المهم هو من يكون ذلك الذى يقف وحده.. وأن السعادة التى نتلقاها من أنفسنا تكون أعظم من تلك التى نحصل عليها مما يحيط بنا.. فالعالم الذى يعيش فيه المرء يشكل نفسه - أساسًا - بالطريقة التى ينظر بها ذلك الفرد إلى العالم. وطالما أن كل شىء يوجد أو يحدث لإنسان إنما يوجد فى شعوره فحسب، ويحدث له وحده، فيكون أهم شىء للإنسان هو تكوين شعوره.. ولذا يعد صحيحًا جدًا قول أرسطو أن «معنى أن تكون سعيدًا هو أن تكون مكثفًا ذاتيًا»^(٣).

(١) حكمة الحياة - ص ١١٧.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - المقدمة.

(٣) حكمة الحياة - ص ٢٧، ٤ - ٩.



ولا مخرج من شر الإرادة الذى لا ينتهى إلا بالتأملات الذكية للحياة، والبحث فى انتصارات العظماء فى جميع العصور وجميع البلاد؛ فلمثل هذه العقول المحبة عاش أولئك العظماء. «ولا يسمو إلا ذلك الفكر الذى يتجلى بالبعد عن الأنانية فيكون كالعطر فوق أخطاء وحماقات عالم الإرادة»^(١). وأغلب الناس لا يستطيعون الارتفاع بأنفسهم عن مجرد رؤية الأشياء على إنها أهداف للرغبة - ومن هنا كانت تعاستهم؛ أما رؤية الأشياء كمجرد هدف للفهم، فأنما يعد صعوداً إلى الحرية.

«وعندما يجتذبنا فجأة من سبيل الإرادة الذى لا نهاية له سبب خارجى أو ميل داخلى، فيخلص المعرفة من عبودية الإرادة، لا يصير الانتباه موجهاً بعد ذلك إلى دوافع الإرادة، بل إلى فهم الأشياء وقد خلصت من علاقتها بالإرادة، ومن ثم يرقب هذه الأشياء دون أدنى مصلحة شخصية ودونما ذاتية»^(٢) بل بموضوعية خالصة - ويعطى نفسه كلها لها طالما هى أفكار، وما دامت ليست دوافع. وعلى أثر ذلك يحل السلام والهدوء للذين تنشدهما دائماً فإذا كانا يهربان دوماً منا إلى الطريق السابق: طريق الرغبة، فسيأتيان إلينا طواعية، وهذا أمر طيب لنا. وهذه ذاتها الحياة التى تخلصنا من الألم التى امتدحها ابيقور واعتبر أنها الخير الأسمى وإنها حالة الآلهة، لأننا نكون فى تلك اللحظة قد تخلصنا من كفاح الإرادة التعس، ونكون قد تحررنا من عبودية الإرادة، فتستقر عندئذ عجلة أكسيون^(٣).

(١) حكمة الحياة - ص ٣٤، ١٠٨.

(٢) نسبة إلى مذهب نسيية المعرفة عند كانت.

(٣) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٢٥٤. تقول الأساطير القديمة أن أكسيون



٢. العبقرية

العبقرية هي أرقى أشكال المعرفة اللاإرادية، وأحط صور الحياة هو كلية الإرادة دون معرفة، والإنسان بصفة عامة أغلبه إرادة وأقله معرفة، أما العبقرية فأغلبها معرفة وأقلها إرادة. «وتتكون العبقرية من أن طاقة المعرفة تكون قد نالت نصيباً من النمو أكبر بكثير مما تتطلبه الإرادة»^(١) وينطوي هذا على انتقال بعض القوة إلى النشاط العقلي عن طريق النشاط التناسلي. «والشرط الأساسي للعبقرية يكون بالسيطرة السابقة غير الطبيعية على العقل والضجر من القوة التناسلية»^(٢). ومن هنا نشأت العداوة بين العبقرية والمرأة التي تمثل التناسل وتمثل خضوع العقل لإرادة الحياة والعيش: «وقد يكون للنساء موهبة عظيمة، ولكن ليست فيهن عبقرية، لأنهن دائماً يظللن ذاتيات»^(٣). وكل شيء عندهن شخصي ويرونه على أنه وسيلة للغايات الشخصية. ومن ناحية أخرى «فإن العبقرية ببساطة هي أكمل صور الموضوعية - أى نظر العقل إلى الأمور من الناحية الموضوعية الخالصة... والعبقرية هي القدرة على أن يبعد المرء تماماً عن نظره مصالحه ورغباته وأهدافه، ويتخلى الشخص تماماً عن شخصيته بأكملها لفترة من الوقت حتى يبقى مجرد ذات عارفة خالصة. ومن ثم يرى العالم رؤية واضحة.. ولذا جاء مدلول لفظة العبقرية مشيراً

حاول أن يكسب Juno من جوبيتر Jupiter، فعوقب عقاباً شديداً إذ ربط إلى عجلة تدور إلى الأبد.

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثالث - ص ١٣٩.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثالث - ص ١٥٩.

(٣) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثالث - ص ١٥٩.



إلى سيطرة المعرفة على الإرادة سيطرة ثابتة مقررة فى الملامح العادية فثمة تعبير غالب للإرادة، ونحن نرى أن المعرفة لا تأتى إلى دائرة العمل إلا وهى تحت دافع الإرادة، وهى لا توجه إلا بدوافع من المزايا والمصالح الشخصية فحسب»^(١).

وإذا تخلى العقل عن الإرادة أمكنه أن يرى الموضوع كما هو؛ «فالعبقريه تمسك لنا المرأة السحرية التى يظهر عليها كل ما هو ضرورى ومهم وقد جمع ووضع فى أسطع ضوء، أما كل ما هو عرضى غريب فىرى وقد أبعد عنها»^(٢). وينفذ الفكر من العاطفة كما يخترق شعاع الشمس السحب، فيكشف قلب الأشياء، ويذهب إلى ما وراء الفرد وخاصة إلى مثال «أفلاطون»، أو روحه العامة التى هى شكل - تمامًا كما يرى الرسام فى الشخص الذى يرسمه، لا مجرد شخصية الفرد وملامحه فحسب، بل صفة عامة وحقيقة دائمة، لا يكون الفرد فى كشفها إلا مجرد رمز أو وسيلة. ومن ثم، فإن سر العبقريه هو الوصول إلى الحقيقة الموضوعية والجوهرية العامة دونما تحيز، بل فى وضوح تام.

وعندما يعمد العبقري إلى أن يمحو شخصيته وينكر ذاته، يجد نفسه فى وضع سيئ فى عالم مليء بالإرادة والنشاط الشخصى والعملى فهو لبعد نظره لا يرى الأشياء القريبة، وهو عديم الفطنة وعجيب «إذ قد يرنو ببصره إلى أحد النجوم فيقع فى بئر. ومن هنا جاء عدم ميل العبقري إلى الاجتماع بالناس، فهو يفكر فيما هو جوهرى

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٢٤٠، ٢٤٣.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٣٢١.



وأساسى وعام وخالد، بينما يفكر الآخرون فيما هو مؤقت وخاص ومباشر. ومن ثم لم يك ثمة أساس مشترك بين عقله وعقولهم وبالتالي فإنهما لا يلتقيان أبداً. «القاعدة أن الإنسان بصفة عامة اجتماعى بنفس الدرجة التى يكون عليها عقله من الضعف فضلاً عن إنه يكون عامياً بصفة عامة»^(١). أما العبرى فله ما يستعيز به عن هذا، وليست به حاجة إلى مصاحبة الناس كثيراً - كما يفعل أولئك الذين يعيشون دائماً فى حالة اعتماد على ما هو خارجى عنهم. «فاللذة التى يستشعرها من الجمال كله، والسلوى التى يقدمها له الفن، وحماس الفنان... تساعده على نسيان شواغل الحياة»، و«تعوضه عن العناء الذى يزيد نسبياً مع جلاء وعيه، وعن وحدته بين جنس من البشر يخالفه»^(٢).

وعلى أية حال، فلا مناص من أن يكره العبرى على العزلة وقد يصل به الأمر أحياناً إلى الجنون، إذ أن الحساسية المرفهة التى تجلب عليه الألم إذا ما وضعت جنباً إلى جنب مع الخيال والبصيرة، فضلاً عن العزلة التى اضطرت لها وسوء الوضع الذى يشعر به... كل ذلك يفكك الروابط التى تربط العقل بالواقع. ومرة أخرى يصيب أرسطو إذ يقول: «أن الرجال البارزين فى الفلسفة أو فى السياسة أو فى الشعر أو فى الفن يبدون جميعاً ذوى مزاج حزين»^(٣). وتؤيد سير العظماء الارتباط المباشر بين الجنون والعبرية، ومن مثال هؤلاء العباقرة

(١) حكمة الحياة - ص ٢٤. An apologia pro vita sua.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٣٤٥.

(٣) فى «حكمة الحياة» - ص ١٩.



الذين انتهوا إلى الجنون روسو وبايرون والفييري Alfieri وغيرهم^(١). «ولقد وجدت بعد ما قامت به من بحث دؤوب في مستشفيات المجانين عدة حالات فردية لمرضى موهوبين بمواهب عظيمة على نحو لا يقبل الجدل، وتظهر عبقريتهم بوضوح من خلال جنونهم^(٢). ومع ذلك ففي هؤلاء العباقرة، أنصاف المجانين، ارستقراطية حقة للجنس البشرى. «وبالنظر إلى العقل، فالطبيعة غاية في الارستقراطية. والفوارق التي فرضتها تفوق تلك التي تصطنع في كل بلد بالميلاد والمرتبة والثروة والطبقة»^(٣). والطبيعة لا تهب العبقرية إلا للقليلين لأن مثل هذا المزاج يعوق السير الطبيعي للحياة التي تتطلب تركيزاً على الجزئى المباشر. «ولقد قصدت الطبيعة في الحقيقة أن يكون حتى العلماء فلاحين للأرض، ويجب أن يقاس أساتذة الفلسفة حقاً بهذا المعيار؛ وعندئذ تظهر أعمالهم إنما هي أمانى خالصة»^(٤).

٣- الفن

إنما هذا التحرير للمعرفة من عبودية الإرادة، وتجاهل المرء لذاته الفردية ومصالحه المادية، وهذا التسامى بالفعل إلى التأملات اللاإرادية في الحقيقة - إنما كل هذا هو وظيفة الفن. وإذا كان موضوع العلم هو الكلى الذى يشمل عدة جزئيات، فموضوع الفن

(١) هذا ما قال به لومبروزو Lombroso فيما بعد، ثم أضاف أيضاً شوبنهاور إلى القائمة.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٢٤٧.

(٣) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثانى ٣٤٢.

(٤) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثالث - ص ٢٠. ولا شك إن أستاذ الفلسفة يستطيع

أن ينتقم لنفسه ويثار لشخصه بأن يذكر أن الطبيعة تجعل منا صيادين لا فلاحين، هذا إلى أن الزراعة كشف إنسانى وليست غريزة طبيعية.



هو الخاص الذى يشمل الكلى. «وحتى الصورة يجب أن تكون - كما قال فينكلمان - المثل الأعلى للفرد»^(١). «وفى رسم الحيوان يعد أكثر الرسوم إيضاحًا للطابع المميز فى الحيوان أكثرها جمالًا لأن الأفضل يكون أحسنها فى الكشف عن النوع. ومن ثم يكون العمل الفنى ناجحًا بنسبة ما يوحى به من مثال أفلاطونى أو عالمى عن المجموعة التى ينتمى إليها موضوع الرسم. وعلى ذلك، فلا يتحتم على الإنسان أن يستهدف سعيه إلى دقة التصوير الفوتوغرافى بل عليه أن يعرض - ما أمكنه ذلك - فى ذلك الشيء المفرد الذى يرسمه بعض الصفات الجوهرية أو العامة للإنسان». والفن أعظم من العلم لأن العلم يتأتى نتيجة للجمع المجهد المضنى والإتيان بالأدلة فى حذر، بينما يصل الفن إلى هدفه فورًا بالبصيرة والإبراز، ويستطيع العلم أن يمضى قدمًا بالموهبة، ولكن الفن يتطلب العبقرية.

وإننا نستقى متعتنا بالطبيعة - كما فى الشعر والرسم من تأمل الشيء دون أن نخلطه بالإرادة الشخصية؛ فنهر الراين عند المصور مجموعة مختلفة من المناظر الساحرة تثير الحواس والخيال بما توحى به من جمال، أما المسافر العادى الذى لا يهتم إلا بشئونه الشخصية «فيرى نهر الراين وشاطئيه مجرد خط، والكبارى مجرد خطوط أخرى تقطع ذلك الخط الأول»^(٢). وهكذا يخلص الفنان نفسه من المشاغل الشخصية بحيث يكون «وفقًا للإدراك الفنى سواء لدينا أن نرى منظر الغروب من سجن أم من قصر»^(٣). «إنها اللذة

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٢٩٠.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثالث - ص ١٤٥.

(٣) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٢٦٥.



التي تنجم عن الإدراك اللاإرادى تلك التى تضىفى جلالاً ساحراً على الماضى وعلى البعيد، وتعرضهما لنا فى غاية فى الجمال»^(١)، وحتى الأشياء المعادية عندما نتأملها دونما انفعال أو إثارة من الإرادة وبدون مبالاة لما قد ينجم عنها من خطر مباشر تبدو عظيمة. وبالمثل قد تكون للمأساة قيمة جمالية إذ هى تخلصنا من الصراع مع الإرادة الفردية، وتعيننا على أن نرى متاعبنا على نطاق أوسع. والفن يخفف شرور الحياة إذ يرينا الصور الخالدة والعامة خلف العابرة والفردية. ولقد كان سبينوزا على صواب حين قال «يساهم المرء فى الخلود بقدر ما يرى العقل الأشياء فى مظهرها الخالد»^(٢).

وفى الموسيقى - قبل كل شىء - تتجلى قدرة الفنون هذه فى السمو بنا فوق صراع الإرادة^(٣) إذ ليست الموسيقى - بحال من الأحوال - كالفنون الأخرى نسخة من المثل أو روح الأشياء، بل هى «نسخة من الإرادة ذاتها».

فهى تبين لنا الإرادة المتحركة والمتصارعة والمتنقلة دوماً، والتى ما تعود إلى نفسها لتبدأ صراعها من جديد. «وهذا هو السبب فى أن تأثير الموسيقى أقوى وأكثر نفاذاً من تأثير الفنون الأخرى، لأن

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٢٥٦.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٢٣٠.

ويقول جيته فى الأنساب المختارة إنه «ليس ثمة خلاص من عالم النضال» أفضل مما بالفن».

(٣) كان شوبنهاور أول من اعترف وعين بوضوح فلسفى وضع الفلسفة بين الفنون الجميلة الأخرى، هذا ما قاله فاجنر Wagner فى صفحة ٢٣ من كتابه عن بهوفن الذى نشره فى سنة ١٨٧٢ فى بوسطون.



هذه الفنون تتكلم عن الضلال فحسب، بينما تتكلم الموسيقى عن الأشياء نفسها»^(١).

وهي تختلف أيضًا عن الفنون الأخرى في إنها تؤثر في مشاعرنا مباشرة^(٢) لا عن طريق الأفكار، وهي تتحدث إلى شيء أكثر مرونة من العقل. ويقابل الإيقاع في الموسيقى التناسق (السيميترية) في الفنون التشكيلية. ومن هنا كانت الموسيقى والهندسة المعمارية متضادين، فالهندسة المعمارية - كما يقول جيته - موسيقى متجمدة، والتناسق إيقاع صامت.

٤- الدين

وبدا لشوبنهاور في نضجه أن هذه النظرية التي قال بها في الفن - وتقوم على سحب الإرادة، مع تأمل الخلود والعام - تصلح أيضًا لتكون نظرية للدين. وكان شوبنهاور في شبابه قد تلقى القليل جدًا من الثقافة الدينية إذ لم تطاوعه ميوله العقلية على احترام النظم الدينية السائدة في عصره، بل احتقر رجال اللاهوت واعتبر أن «الاستنتاج النهائي الذي وصل إليه عن رجال اللاهوت، هو إننا نجد هذا الخازوق بين عدة شعوب أخرى»^(٣)؛ ووصف الدين على أنه ميتافيزيقا العامة»^(٤). على أنه مع مرور السنين بدأ يتبين دلالة عميقة

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٣٣٣.

(٢) يعارض هانسليك Hanslick في هذا الرأي في كتابه «الجميل في الموسيقى» The Beautiful in Music نشر لندن سنة ١٨٩١، ويقول إن الموسيقى تؤثر فحسب في التخيل مباشرة، ولا شك في إنها تؤثر مباشرة في المشاعر وحدها.

(٣) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثاني ص ٣٦٥.

(٤) الحواشي والبواقى - «الدين» - ص ٢.



فى بعض الطقوس والمذاهب الدينية، «فإن الجدل الذى يثابر على الاستمرار فيه - فى عصرنا هذا - علماء الخوارق الطبيعية والمفكرون يقوم على أساس فشلهم فى معرفة طبيعة الرمزية فى الأديان كلها»^(١). فالمسيحية - مثلاً - فلسفة عميقة للتشاؤم؛ «فمذهب الخطيئة الأصلية (تأكيد الإرادة) والخلاص (إنكار الإرادة) هما الحقيقة الكبرى التى يتكون منها جوهر المسيحية»^(٢). والصيام وسيلة رائعة لإضعاف تلك الرغبات التى لا تؤدى أبداً إلى السعادة وإنما تؤدى إلى القضاء على الخلايا أو إلى رغبة أخرى. «القوة التى استطاعت المسيحية فى أول الأمر أن تنتصر بفضلها على اليهودية، ثم على وثنية الإغريق والرومان، إنما تقوم على ما فيها من تشاؤم فحسب، وفى الاعتراف بأن حالتنا غاية فى الشقاء والخطايا، بينما كانت كل من اليهودية والوثنية متفائلتين»^(٣)؛ و«كانتا تريان أن الدين رشوة تقدم للقوى السماوية لتلقى مساعدتها على النجاح فى الدنيا أما المسيحية فترى فى الدين رادعاً عن البحث غير المجدى فى السعادة الدنيوية. وفى وسط السلطان والمتاع الدنيوى أقامت المسيحية مثالية القديس الهائم بالمسيح، الذى يرفض القتال، ولكنه ينتصر تماماً على الإرادة الفردية»^(٤).

أما البوذية فهى أكثر عمقاً من المسيحية لأنها تجعل فى تحطيم الإرادة تمام الدين، وتبشر بالنيرفانا على أنها هدف الكمال الشخصى. وكان الهندوس أكثر عمقاً من المفكرين الأوروبيين لأن تفسيرهم

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثانى ص ٣٦٩.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٥٢٤.

(٣) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثانى ص ٣٧٢.

(٤) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٤٩٣.



للعالم تفسير حدسى جوانى لا عقلى برانى؛ فالعقل يقسم كل شىء، أما الحدس والبصيرة فتوحد كل شىء. كذلك رأى الهندوس أن الـ«أنا» وهم وضلال، وأن الفرد ليس إلا مجرد ظاهرى، وإن الحقيقة الوحيدة هى السرمد الأوحد - «ذاك هو أنت». «ذلك الذى يستطيع أن تقول هذه العبارة لنفسه، بالنسبة إلى كل كائن يتصل به»، ذلك الذى يكون له بصر حاد وبصيرة صافية، يرانا جميعاً أعضاء فى نظام واحد، وإننا جميعاً تيارات صغيرة فى محيط الإرادة - وفى «ثقة من كل فضيلة ونعمة، ويكون فى الطريق المستقيم نحو الخلاص»^(١). ويرى شوبنهاور أن المسيحية لن تحل محل البوذية فى الشرق أبداً «فإن ذلك أشبه بإطلاق رصاصة على صخرة»^(٢). بل يعتقد أن الفلسفة الهندية تناسب إلى أوروبا. وستغير معرفتنا وفكرنا تغييراً جذرياً. «وسينفذ تأثير الأدب السنسكريتى على نحو لا يقل عمقاً عن أثر الأدب اليونانى عندما بعث فى القرن الخامس عشر»^(٣).

وعلى ذلك فالنيرفانا هى الحكمة النهائية: وهى تسعى إلى تخفيض ذات المرء إلى أقل حيز من الرغبة والإرادة. وإرادة العالم أقوى من إرادتنا، فلنستسلم على الفور. «وكلما قل انفعال الإرادة، قل عناؤنا»^(٤). ودائماً أظهرت الروائع الكبرى من الرسم الملامح التى «نرى فيها تعبير المعرفة الكاملة التى لا توجه نحو أشياء معينة،

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٤٨٣.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٤٦٠.

(٣) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - المقدمة. ربما كان فى ما نراه من انتشار الفلسفة الإلهية باتخاذ الباطنية طريقاً إلى الفلسفة وما نراه من عقائد مشابهة ربما كان فى ذلك تحقيق لنبوءة شوبنهاور هذه.

(٤) حكم وأمثال - ص ١٩.



بل... أصبحت أكثر هدوءًا من الإرادة»^(١). «وذلك الهدوء الذى يسمو على العقل، وذلك الهدوء الكامل الذى تتصف به الروح، وتلك الراحة العميقة، وذلك الصفاء المقدس والثقة الدائمة... التى عبر عنها رافاييل Raphael وكورييجيو Correggio بن كامل متين تبقى فيه المعرفة وحدها أما الإرادة فتفنى»^(٢).

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٣٠٠.

(٢) العالم إرادة وتخيل - المجلد الأول - ص ٥٣١.



حكمة الموت

ومع ذلك، فثمة شيء آخر مطلوب طلباً أشد. فالفرد يحقق - بالنيرفانا - السلام عن طريق انعدام الإرادة ويجد بذلك الخلاص؛ ولكن ماذا بعد الفرد؟ تضحك الحياة من موت الفرد، إذ أنها تبقى بعد رحيله، وتنبعث في أخلافه، أو في أخلاف الآخرين، وحتى بعد أن يخف غدير حياته الصغير، تظهر آلاف الغدران الأخرى التي تزداد اتساعاً وعمقاً مع كل جيل. فكيف يمكن إنقاذ الإنسان؟ هل هناك نيرفانا للجنس كما أن هناك نيرفانا للفرد؟

واضح إنه يجب أن يكون الانتصار الجوهري والنهائي الوحيد على الإرادة في وقف مصدر الحياة - إرادة التناسل. «وإن إشباع الدافع التناسلي مفهوم تمامًا لأنه أقوى تأكيد للرغبة في الحياة»^(١) فآية جريمة اقترفها هؤلاء الأطفال حتى يجازوا عنها بأن يولدوا؟

«وإذا تأملنا اضطراب الحياة لرأينا الناس كلهم مشغولين بحاجتهم وشقائهم، ويستنفدون كل قواهم لإشباع حاجات الدنيا التي لا حد لها وفي أبعاد أحزانها المتعددة. ومع ذلك، لا يجروء الناس على أن يأملوا في شيء آخر أكثر من المحافظة على وجودهم المؤلم لفترة

(١) عن والاس Wallace - ص ٢٩.



قصيرة من الزمان. وفى أثناء ذلك، وفى وسط هذه الثورة، نرى لمحة من عاشقين يلتقيان فى شوق، ولكن فى خفاء، وفى خوف، وفى خلصة.. فلماذا؟ لأن هذين العاشقين خائنان يريدان استمرار الحاجة والعبودية اللتين لولا ذلك لكان مصيرهما الانتهاء.. وهذا هو السبب العميق لما يلزم عملية التناسل من الخزى»^(١).

والمرأة هنا هى المجرمة، لأنها عندما تصل المعرفة إلى الإقلال من الإرادة فهى تغرى الرجل بمفاتها التى لا تفكر، فتوقع به مرة أخرى ليتناسل. وليس لدى الشباب الذكاء الكافى ليرى مدى قصر هذه المفاتن؛ وعندما يدركه الذكاء، يكون الأوان قد فات.

«ويبدو أن الطبيعة ترى مع الفتيات ما يوصف فى فن الدراما بأنه التأثير الملفت للنظر، فهى تضى علىهن لبضع سنوات ثروة من الجمال تكون سخية فى إضفاء الفتنة عليهن - على حساب البقية الباقية من حياتهن - حتى يمكن أن يأسرن خيال رجل ما إلى درجة يسرع معها بالقيام بالعناية بهن عناية شريفة.. طالما عشن - وهى خطوة ليس لها ما يبررها لو كان العقل وحده هو الذى يوجه أفكار الرجل... وتمضى الطبيعة هنا - كما تمضى فى مكان آخر - بنفس التدبير الاقتصادى، فكما أن أنثى النمل بعد الإخصاب تفقد جناحيها اللذين يصبحان وقتئذ زائدين بل خطراً على عملية التربية، كذلك نجد أنها بعد أن تلد المرأة طفلاً أو طفلين غالباً ما تفقد فتنتها وجمالها، وربما كانت الأسباب الداعية لذلك هى نفس الأسباب (فى حالة أنثى النمل)»^(٢).

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثالث - ص ٣٧٤، المجلد الأول - ص ٤٢٣.

(٢) رسالة «عن المرأة» - ص ٧٣.



ويجب أن يتأمل الشباب فى إنه «إذا كان الشىء الذى يلهمهم اليوم بكتابة قصائد الغزل والشعر العاطفى قد ولد قبل ثمانية عشر عامًا، لما استرعى انتباههم قط، ولما حانت منهم لمحة إليه»^(١). وعلاوة على كل ذلك، فالرجل أكثر جمالاً من النساء من ناحية الجسد.

«إنه ذلك الرجل وحده الذى تشوب عقله سحب الدافع الجنىسى هو الذى يضيف اسم الجنس اللطيف على ذلك الجنس الضئيل الحجم، الضيق الكتفين، العريض الفخذين، القصير الساقين، لأن كل جمال الجنس مرتبط بهذا الدافع. وبدلاً من وصفهن بالجمال» هناك ما يبرر وصف النساء بأنهن الجنس غير الجميل، إذ ليس لديهن أى استعداد حقيقى للتأثر بالموسيقى ولا بالشعر ولا بالفنون الجميلة. إنها مجرد السخرية وحدها تبدو منهن عندما يتظاهرن بهذا التأثر لمساعدة سعيهن إلى اللذة... وليس لديهن قدرة على الاهتمام بشىء من هذا اهتماماً موضوعياً مجرداً... ولم تتمكن امرأة واحدة بين جميع أفراد هذا الجنس ممن تميزن بفكر راق أن تنتج عملاً واحداً فى حقل الفنون الجميلة مما يمكن أن يعتبر أصيلاً وحقيقياً، أو أن تقدم للعالم أى عمل ذا قيمة دائمة فى أى مجال»^(٢).

ولقد جاء هذا الاحترام للمرأة نتيجة من نتائج الديانة المسيحية والعاطفية الألمانية، وأصبحت بدورها سبباً للحركة الرومانسية التى تمجد الشعور والغريزة والإرادة قبل العقل^(٣). أما الآسيويون، فقد فاقوهم فى المعرفة، ويعترفون صراحة بنقص المرأة «عندما

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثالث - ص ٣٣٩.

(٢) رسالة «عن المرأة» - ص ٧٩.

(٣) رسالة «عن المرأة» - ص ٨٤.



تعطى القوانين المرأة حق المساواة بالرجل يجب أن تضاف عليها أيضًا عقل الرجل»^(١). وتبدى شعوب آسيا مرة أخرى حكمة أكبر مما لدى الغرب فى نظم الزواج، فهى تقبل تعدد الزوجات على أنه طبيعى وشرعى وهو أمر يمارس على نطاق واسع فى العالم الغربى، ولكنه يغطى بورق التين بعبارة «وأين أولئك الذين يتزوجون من زوجة واحدة؟»^(٢) وإنه لمن الغباء إعطاء المرأة حقوق الملكية، فإن كل النساء - فيما عدا القلة النادرة - يملن إلى الإسراف لأنهن يعشن فى الحاضر فحسب؛ وأحب رياضة لهن خارج بيوتهن هى التسوق «فالنساء يرين أن مهمة الرجال هى كسب المال، وأن مهمتهن هى صرف المال»^(٣). هذا هو مفهومهن لتقسيم العمل. «ولذا فإنى مع الرأى القائل بالآسما يسمح للنساء بتأا بتدبير شئونهن الخاصة، بل يجب أن يكن دائما تحت إشراف الرجال - سواء كان الرجل الأب أو الزوج أو الابن أو الدولة - كما هى الحال فى بلاد الهند. وتبعًا لذلك، فىجب ألا تعطى لهن سلطة كاملة للتخلص من أية ممتلكات لم يحصلن عليها بأنفسهن»^(٤). وربما كان الترف والتبذير من النساء فى بلاط لويس الثالث عشر هما اللذين أديا إلى الفساد العام فى الحكومة مما انتهى بالأمر إلى الثورة الفرنسية^(٥).

وكلما قلت صلتنا بالنساء كان هذا خيرا وأفضل. فهن لسن حتى

(١) العالم إرادة وتخيل - المجلد الثالث - ٢٠٩ - ٢١٤.

(٢) رسالته «عن المرأة» - ص ٨٦.

(٣) رسالته «عن المرأة» - ص ٧٥.

(٤) فى ص ٨٠ من والاس. هـا صدى لعدم رضى شوبنهاور عن مسلك أمه الشاذ.

(٥) رسالته «عن المرأة» - ص ٨٩.

«بالشر الذى لا بد منه»^(١). ذلك أن الحياة تكون أكثر أماناً وسلامة وراحة بدونهن. ولو عرف الرجال الفخ الكامن فى جمال النساء لانتهت المهزلة التى لا معنى لها: مهزلة التناسل. ويؤدى نمو الذكاء إلى ضعف إرادة التناسل أو يوقفها مما يصل فى نهاية الأمر إلى القضاء على النوع. وليس هناك شىء يمكن أن يشكل حلاً أجمل للمأساة المجنونة: مأساة الإرادة القلقة.

لماذا ترفع ثانياً الستار التى أسدلت لتوها على الهزيمة والموت عن حياة جديدة، وصراع جديد، وهزيمة جديدة؟

والى متى نخدع بهذا العمل الذى لا جدوى منه، وهذا الألم الذى لا ينتهى، والذى لا يؤدى إلا إلى النهاية المؤلمة؟

متى تكون لدينا الشجاعة لتحدى الإرادة - ولنقول لها إن جمال الحياة أكلوبة وأن أعظم شىء فيها هو الموت؟

(١) كلمات كارليل.

المجلد الثالث
نحن وشوبنهاور



إنسانية شوبنهاور

قبل أن أتحدث عن شوبنهاور الفيلسوف أو أترك له الحديث عن نفسه، أريد أن أقف لحظات عند وصيته التى تركها. فهذه الوصية تشير إلى ثمانية من الصفات الإنسانية التى كانت لديه:

أولاً: حبه للخير الذى يتمثل فى اختيار مؤسسة خيرية لترثه.

ثانياً: حبه للنظام والجندية الذى يتمثل فى تحديد هذه المؤسسة بأنها تلك التى أسست لرعاية ضحايا القتال فى سبيل المحافظة وإعادة النظام إلى ألمانيا.

ثالثاً: صلته الرحم مما يتمثل فى منح جزء من تركته لأقاربه الذين نص على أسمائهم فى وصيته. هذا فضلاً عن محاولة التقرب إلى أسرته فى سنة ١٨٣١ - رغم أنها محاولة انتهت إلى الفشل.

رابعاً: رده الجميل مما يتمثل فى المنحة التى قرر لها لخدمته الخاصة إذا كانت لا تزال تعمل لديه عند وفاته.

خامساً: اهتمامه بالمخلفات العلمية مما يتمثل فى تركه بعض المصورات للبلدية، وترك مخطوطاته ومخلفاته العلمية للدكتور فراونشتيت.



سادساً: عطفه على الحيوان الذى يتمثل فى اهتمامه بكلبته «أتما» ومصيرها بعد وفاته.

سابعاً: خوفه من الناس ويتمثل فى الفقرة اللاتينية التى سجل فيها المعلومات المهمة عن مخلفاته، فضلاً عن تسجيله المعلومات عن المزرعة ومكانها على سجل الدخل والمنصرف.

ثامناً: دقته فى الحسابات مما يتمثل فى مسكه لدفتر حساباته اليومية، فضلاً عن الطريقة التى قسم بها تركته عامة، وتلك التى اتبعها لصالح خادمته بصفة خاصة.

كل هذه الصفات التى تميز بها شوبنهاور جعلتني أصر على إثبات الوصية فى ترجمة نصية لها. راجياً أن يجد فيها القراء ما يثبت إنسانية هذا الفيلسوف وما يشير إلى اتجاهاته فى الحياة.



شوبنهاور يتحدث عن نفسه

أستطيع أن أقول إنه لا يكاد يوجد منهج فلسفى بمثل هذه البساطة أو مؤلف من عدد يسير جداً من العناصر على النحو القائم فى فلسفتى ومن ثم، فمن السهل تأملها والنظر إليها ككل. ويقوم هذا - على الأقل - على أساس الوحدة التامة وارتباط أفكارها الأساسية، وهذا فى الحقيقة دلالة طيبة على صدقها وهو أمر يتناسب كل التناسب مع البساطة: فالبساطة طابع الحقيقة.

ويستطيع المرء أن يتصور منهجى كمذهب جوانى لأن نظرياته لا تزال مذهبية، ولكنها لا تقدم للعالم بصورة تجريبية بل تشرح فحسب ماهية هذا العالم، وتحلله إلى مقوماته النهائية. والمذهبية القديمة وخاصة تلك التى قوض «كانت» أركانها - مذهبية متعالية تجريدية، تتعالى على العالم لتصوغه فى صورة مختلفة، فهو يجعلها نتيجة لمقدمة أقام عليها حكمه. وفلسفتى - على العكس من ذلك - تبدأ بنظرية تقول إنه ليس فى العالم سوى مقدمات ونتائج، إلا وهى نظرية العقل فى صورته الأربعة؛ إذ إنه الشكل العام للفكر. ولكن العالم الموضوعى يقف فى هذا وحده على إنه الدعامة الحقيقية للعالم.



وفى المذاهب الفلسفية الأخرى تستخرج النتيجة بطريقة تستخلص فيها النظرية من النظرية. ولذا فلا بد من أن تكون المقومات للمذهب قائمة بالضرورة فى النظرية الأولى، بينما تكون المقومات الأخرى التى تستنتج منها لا تتميز بأية صعوبة إلا فى كونها رتبة هزيلة فارغة وتبعت على الضيق لأنها فى الواقع ليست سوى تطوير وتكرار لما سبق أن أشير إليه فعلاً فى النظرية الأولية. وتبدو هذه النتيجة المحزنة للاستنتاج التوضيحي جلية فى فلسفة فولف Chr. Wolf بل إننا نجد أن سبينوزا - الذى كان يلتزم هذا المنهج بشدة - لم يستطع أن يتلافى مضاره، وأن كان قد عرف بموهبته كيف يعوض ذلك. ونظريتي على العكس من ذلك - لا تقوم فى الغالب على الحلقات النهائية، بل إلى ذات العالم المنظور مباشرة، وليست النتائج القائمة فى مذهبي تشبه فحسب كثيرًا من مثيلاتها فى أية مذهب متشدد قائم على الطريقة المنطقية وحدها، فعلاوة على ذلك، فإن تطابق النظريات البديهى الذى لا بد أن يصل إلى ذلك حتمًا ينقصه الإدراك الحدسى - وأعنى بذلك الحسى الذى يقوم عليه - لجميع جوانب الموضوع من البحث فى العالم الحقيقى بجميع ظواهرها كما يراها الوجدان. وهكذا استطعت التخلص من كل قلق على تطابق نظرياتي. وحتى إذا حدث هذا القلق، كما حدث بالفعل لفترة ما بدا لى أنه يصعب التغلب عليه لأن التطابق جاء لوحده فيما بعد بصورة صحيحة - إذ ليس ثمة شىء آخر سوى تطابق الواقع مع نفسه، فكيف اتفقت النظريات مع بعضها اتفاقًا تامًا؟ لقد اتفقت لأنه ليس بينها شىء مخالف، شأنها فى ذلك شأن الحقيقة التى لا يمكن أن تضيع.



ويشبه هذا رؤيتنا لبناء لأول مرة، ومن جانب واحد فحسب.. فنحن حينئذ لا نستطيع أن نفهم الترابط القائم بين أجزائه، ولكننا واثقون من إنه لا ينقصه شيء، وإنه سيثبت ذلك إذا ما درنا حوله دورة كاملة. وإذا كان هذا النوع من التطابق مؤكد ويقيني لأصالته ولأنه خاضع دائماً للتجارب، فعلى نقيض ذلك يسهل الكشف عن بطلان تلك الاستنتاجات التي يأتينا بها القياس حالما تظهر أن أية حلقة في السلسلة الطويلة غير أصيلة أو غير متينة البنيان أو يعتريها النقصان وطبقاً لذلك، كان لفلسفتي مجال فسيح يقف عليها كل شيء مباشرة وبالتالي في أمان، بينما تشبه المذاهب الأخرى الأبراج العالية؛ فإذا سقط أحد أعمدتها انهارت كلها.

وكل ما قيل هنا، يمكن تلخيصه في عبارة واحدة، وهي أن فلسفتي لا تقوم على أساس تحليلي ولا تركيبى ولا وصفى.

وعلى غرار الطابع الغريب لفلسفتي، يمكننى أن أقرر أنى أحاول دائماً أن أصل إلى أسس الأشياء دون الكف عن متابعتها حتى النهاية وهذا ناجم عن الميل الطبيعي لدى الذى يجعلنى لا أقنع بالمعرفة العامة أو المجردة.. أو أراضى بالملاحظة وحدها.. ويظل هذا الميل الطبعي يدفعنى حتى أجد الأساس الأخير لكل الآراء، والنظريات عارياً أمامى... وقد أبقى بعض هذه النظريات والآراء كظواهر أصيلة، وقد أحللها إلى عناصرها الأصلية. ولكنى على كل حال، أتتبع طابع الموضوع إلى أقصاه.

ولسوف يعرف الناس فيما بعد - وطبعى أن ذلك لن يكون طوال حياتى - إننى إذا كنت قد عالجت بنفسى موضوعاً عالجه من قبل



فيلسوف سابق، فذلك لأن معالجة ذلك الفيلسوف للموضوع إنما تبدو سطحية إذا ما قورنت بمعالجتي للموضوع ذاته. ومن ثم فقد استفادت الإنسانية مني الكثير، مما لن تنساه، بل إن أعمالي ذاتها لن تفنى قط.



النقد

إذا ما أردنا أن نتفهم فلسفة شوبنهاور، فعلى أن نقوم بعملية تحليل للرجل ولعصره. ولنرجع إلى الوراء - إلى أيام الإسكندر وقيصر الروم، فعلى أيامهما بدت ظاهرة قريبة: هى تلك الظاهرة التى أتت - إلى اليونان بعد فتوحات الإسكندر وإلى روما بعد القيصر - بفيض من العقائد والميول الغربية على البلاد وأهمها أن الإرادة الخارجية فى الطبيعة أقوى كثيرًا منها فى الإنسان، بحيث تنتهى إلى القول بالاستسلام واليأس. فعندما أضمحل الإغريق، شحب بذلك مذهب الرواقية وتوردت الأبيقورية على حدود اليونانيين. كذلك أسفرت فوضى حروب نابليون عن حالة رهيبة من القلق على أوروبا فى سنة ١٨١٥ وأدت إلى الشعور بالضجر والملل والشكوى فى النفوس بين كل أهالى أوروبا.. وهذا الوضع جعل من شوبنهاور الناطق الفلسفى بلسانها.

هذا عن طبيعة العصر، أما تحليلنا الشخصى فلنبدأ من اعتراف شوبنهاور بأن سعادة الإنسان تعتمد على ما يكون عليه الإنسان أكثر مما توقف على الظروف الخارجية. والتشاؤم هو وثيقة اتهام المتشائم. ويرى ويل ديورانت أن طبيعة فلسفة شوبنهاور يبرزها



العلة المرضية والعقل المتوتر وحياة الفراغ الكامل والقلق الكئيب الذى تميزت به حياة شوبنهاور، فالتشاؤم يتطلب أن يكون لدى المرء وقت فراغ، إذ أن الحياة الحافلة بالحركة تجعل صاحبها دائماً ذا روح طيبة - فى الجسم وفى العقل. وشوبنهاور يبدى إعجابه بالسمو الذى يتولد عن الأهداف المتواضعة والحياة الرتيبة ولكنه لا يكاد يستطيع الكلام عن هذين الأمرين من واقع التجربة الشخصية إذ كان لديه حقاً من المال ما يكفل له الفراغ المستمر، كذلك وجد أن الفراغ المستمر يحتاج إلى قدرة أكبر لاحتماله تفوق احتمال العمل المستمر. ولربما كان مرجع ميل الفلاسفة إلى الحزن هو عدم طبيعة الأعمال التى تستلزم الجلوس والاسترخاء، ومن الأرجح أن يكون هجومهم على الحياة مجرد عرض ناجم عن فقدانهم للنشاط والحركة.

نشأ شوبنهاور - كما مر بنا - وسط التجارة والمال، ودفعه أبوه دفعاً إلى الانخراط فى السلك التجارى، إلا أنه ما كاد يجد فى نفسه الجرأة على التحرر من وعده لأبيه حتى انصرف عن الدراسات التجارية وهجر الأعمال التجارية كلية.

ولكننا إذا تتبعنا حياته لتبين لنا فى وضوح ذلك الأثر الذى تركته هذه الفترة فيه وفى شخصيته. فقد خلفت هذه السنين الأولى فى نفسه نوعاً فريداً من الصراحة فى السلوك، واتجهت بعقله اتجاهاً واقعياً، وهيات له معرفة كاملة بالعالم والناس، وجعلت منه رجلاً يناقض ذلك الطراز «الأكاديمى» من الفلاسفة، فراح يمعن فى احتقار شأن هذا الصنف من الفلاسفة، وينظر إليهم على أنهم يتاجرون بالفلسفة، ويبيعون أنفسهم للجامعة ومن ورائها الدولة. وواضح أن هذه النظرة ترجع إلى حد ما - لكرهه للتجارة من ناحية، ومن ناحية أخرى إلى



ميله للتأمل الفلسفى ورغبته فى تجريد الفلسفة والنظريات التى يخرج بها الفيلسوف عن كل غرض. وهو نفسه يضرب لنا المثل على ذلك عندما يضحى بكل مكسب مادى كان من الممكن أن يعود عليه من نشر كتبه، ويكتفى ببضع نسخ منها بعد الطبع.

وقد يقول قائل إن كتابة الأول بيع بالأفة ولم يعد على ناشره إلا بالخسران، ولكن يجب ألا ينظر إلى الأمر من هذه الزاوية، بل ننظر إليها من خلال شوبنهاور ذاته. فمن الواضح أنه كان يعتقد كل الاعتقاد أن كتابه قطعة نادرة وأنه فتح جديد فى عالم الفكر، بل لقد كتب ذلك كله فى رسالته التى بعث بها إلى الناشر ومن ثم فقد كان من الطبيعى أن يطلب لنفسه حقوقاً كتلك التى كان يكتسبها المؤلفون الآخرون على أيامه. أما إنه يتنازل عن هذه الحقوق ويكتفى بالنسخ فهذا ما يثبت إرادته فى عدم جعل الناحية المادية تتحكم فى نشر مذهبه الفكرى إلا ما كان منها لصالح هذه الفلسفة - أى بالتنازل عن حقوقه وتخفيف العبء المادى على الناشر لترغيبه فى نشر آرائه.

وأود أن أنبه هنا إلى خطأ القول بأن شوبنهاور إنما حمل على الأساتذة الجامعيين الذين يعيشون على الفلسفة، وأن حملته هذه إنما جاءت بعد الصدمة التى لقيها فى برلين عندما انصرف الطلبة عنه وراحوا يقبلون على محاضرات هيجل وحده.. فهذا أمر بعيد عن الواقع إلى حد كبير؛ إذ أنه من الثابت أنه هاجم أساتذته وقت أن كان تلميذاً فى المدرسة الثانوية، وأنه قد ناقش نيشته مناقشة حامية وقت أن كان طالباً فى الجامعة.

فما الدافع الحقيقى لهذا الهجوم؟



لقد كان آرتور شوبنهاور مثال الرجل الجزرى المقيم على أصغر جزيرة، فهو أخذ حذره دومًا من النار ومن البكتيريا. وراح يمعن فى العزلة ويبالغ فى الابتعاد عن الناس إذ كان يعتقد أن «بداية الحكمة - الخوف من الناس».

وقد قال البعض أن ذلك من طبيعة شوبنهاور، إلا أن هذا الرأى خاطئ، إذ كانت روحه تفيض بالفكاهة، وكانت تبشر بأن يكون فكهًا مرحًا، حتى إنه قال حكايات مسلية للغاية.. ففى حديثه عن مدينة Bath مدينة الحمامات الإنجليزية يقول: «يعرض السادة على السيدات أسلوبهم الراقى فى الحياة فلا يظهرون أمامهن قط فى الصباح مرتدين ثياب الصباح، كما لو كانوا يريدون إلا يظهروا أمامهن أغبياء البتة. أما العجائز والأطفال فهم قانعون بالصفوف الثانية من الأرائك فى الملاهى، فرمانهم أما فات وأما لما يجىء. وتبدأ المراقص فى السابعة مساء وتنتهى مع الدقة الحادية عشر - ولو كان ذلك فى أثناء الرقص..».

هذه صورة من الصبى الساخر الفكه كما عاش فى هذا العالم الحافل بالغناء والرقص؛ ولكن الأيام بما حملته له مع مرورها هى التى جعلته يتحول إلى الجانب القاتم من الحياة. فقد شاهد فى طولون مثلاً سجنها الذى حشر فيه ستة آلاف سجين، وأحس بصدمة هائلة عند ذاك جعلت الحزن على الحياة والأسى لما فيها يسيطران عليه وإن كانت جذور الملل من الحياة فقد بدأت تتأصل فى نفسه منذ كان فى الخامسة عشرة من عمره، إذ كتب عبارات تنم عن ذلك ومن أمثلتها قوله «لم أجد ما يحقق آمالى» وتتضح هذه الحقيقة أيضًا فى وصفه مسرح بوردو Borda بأنه «حظيرة للخنازير»، ووصفه



لشلالات دوديتس Duodez فى النمسا بأنها «صغيرة كلعب الأطفال»،
ووصفه للجبال القريبة من فيينا بأنها «كتل من الصخور».

كذلك بدأ ضيقه من أساتذته واضحًا؛ إذ وصف محاضراتهم وهو
تلميذ فى المدرسة -بأنها ثرثرة. وبعد ذلك بقليل سخر من فيشته وقال
إنه «مهرج» ووصف فلسفة هيجل بأنها «مجون فلسفى».

ولكنه بعد أن رأى الناس والمدن، قرأ أفلاطون وكانت، وأعجب
بفلسفتهم وخاصة تقسيمهما الوجود إلى محسوس ومعقول، أو علم
الظواهر وعالم الشيء فى ذاته، حيث اعتبر ذلك ازدواجًا للتأمل
والشهوة والفكر والإرادة.

وأعجب شوبنهاور كذلك بما جاء فى الكتب البوذية عن الشر
الطبيعى والخلقى.

واجتمعت هذه العناصر بما ذهب إليه تفكيره فى مسائل الحياة
والتصرفات المحيطة به، ومن مجموعها كان مذهبه.



شوبنهاور وكانت

نظر إلى كانت وما خلفه من آثار، وراح يدرسها بدقة؛ وانتهى إلى أن كانت إنما هو الحلقة الثانية من السلسلة الثلاثية التي كان أولها أفلاطون وثانيها كانت ومكملها هو شوبنهاور نفسه!

نعم، كان يعتقد أنه المكمل لكانت، ولذلك كان كانت الفيلسوف الوحيد الذى استثناه من الفلاسفة المعاصرين، ليكيل أجمل الكلمات وأرق العبارات فى وصف فلسفته. وكثيراً ما كان شوبنهاور يتلطف فى حديثه عن كانت، بل يعده أستاذه الأول، فى الوقت الذى يكيل الهجمات إلى الفلاسفة الآخرين وفى مقدمتهم هيجل وفيشته.

ولكن ليس معنى هذا إنه لم ينتقد كانت، بل على العكس من ذلك وجدناه أفرد قسمًا كبيرًا من عمله الخالد - العالم إرادة وتخيل - لنقد الفلسفة الكانتية. ولم يخل نقده لكانت من الانتقادات اللاذعة الشديدة، ولكنها كانت على وجه العموم انتقادات لطيفة مؤدبة.

وكانت هذه الانتقادات تنسحب - على السواء - على الجانب النظرى من آراء كانت، كما كانت تنصب على الجانب العملى من نتاج فيلسوف المثالية الألمانية.

ولعلنا إذ عدنا إلى مؤلف شوبنهاور الأول عن «الأصل الرباعى



لمبدأ العلة الكافية». لتبيننا إلى أى حد اتفق شوبنهاور مع كانت فى آرائه النظرية، بل كان من الواضح أن شوبنهاور يعتقد أنه لا داعى لتعديل آراء كانت عن طبيعة المكان والزمان، إذ ليس المكان والزمان فى الحقيقة إلا تخيلات إنسانية أو كفيات ذهنية، لا يكون الإدراك البشرى للأشياء إلا عن طريقها.

وكان شوبنهاور يعتقد أن كانت قد صاغ هذه الفكرة القيمة بحيث صارت فى مصاف أعظم أفكار الفلسفة البوذية، وأنه استطاع أن يقدم البراهين والعلل التى لا مجال لمناقشتها ولذلك قرر ألا يدخل تعديلات عليها، بل راح يؤكد هذه الأقوال الثابتة مع التأكيد على أنه لا يمكن أن يستمر الوعى البشرى فى البقاء دون تخيل الزمان والمكان. وكان كانت يوجب شروطاً لظهور الفهم يتحتم على تخيلاتنا أن تخضع لها. ولكن شوبنهاور لم ينظر نفس النظرة، ولم يهتم بهذه الشروط؛ بل قرر أنه ليس فى إمكان الفهم أن يتخيل شيئاً من الأشياء دون أن يكون هذا الشيء مرتبطاً بما يدركه الفهم. ومن هنا جاءت تأكيدات شوبنهاور فى نظريته «عن الأصل الرباعى لمبدأ العلة الكافية» التى تحدد:

أولاً: العلاقة بين المبدأ والنتيجة.

ثانياً: العلاقة بين العلة والمعلول.

ثالثاً: العلاقة بين الزمان والمكان.

رابعاً: العلاقة بين الداعى والفعل.

وتجديد هذه العلاقات لا يمكن لأية ظاهرة أن تنطبع فى الفهم - أى أن تكون ظاهرة من الظواهر - إلا إذا تلاءمت مع العقل. وهذا ما



احتفظ به شوبنهاور من فلسفة كانت النظرية. أما باقى نظريات كانت فلا قيمة لها - فى نظر شوبنهاور، بل كان يعتبرها - أيضًا - غير صحيحة البتة. فإن شوبنهاور يرفض تفرقة كانت بين الإحساس والفهم والعقل. وهو يصدر حكمًا قاسيًا على المقولات^(١) ومنافذها الوهمية؛ كما أنه انتقد بشدة كانت فى «النظرية الصورية Transcendental». وراح يشير بسخرية إلى ما قال به كانت من «مقولات العقل» التى جعلها وفق ما توجهه مقتضيات كل مبحث من المباحث.

ويشتد شوبنهاور فى نقده العنيف، ويزداد حدة حتى لأننا بشوبنهاور ينفجر تمامًا عندما يتطرق إلى فلسفة كانت الأخلاقية. فينتقد التفرقة بين الناحية التشريعية والناحية الأخلاقية، ويسفه «المشاعر النبيلة» التى تنطوى عليها أخلاقيات كانت. كذلك ينتقد ما سُمى بالقانون الأخلاقى وطرق تطبيق صيغته القانونية.

كذلك ينتقد جميع ما ينجم عنها من الواجبات. ثم يرى فى النهاية أن يصدر حكمه القاسى على كانت فى هذه الناحية، ولكنه يعود فيبرر الانحدار الذى انزلق إليه كانت فى نظر شوبنهاور بأن ذلك ليس إلا نتيجة حتمية لتقدم السن بكانت.

وفى الواقع أن شوبنهاور كان يرى أنه يمكن الاحتفاظ بجانب من فلسفة كانت، بينما ينبغى التجاوز عن الأشياء الكثيرة الأخرى وخاصة فى «نظرية الفضيلة» وما أشبه.

(١) هى القوانين العقلية الأولية (أو الفطرية) التى يدرك العقل بها العالم. وكان أرسطو هو أول من نادى بالمقولات العشر.



مذهب شوبنهاور

وضع شوبنهاور أساس مذهبه، أى نظرية المعرفة، وذلك فى رسالته «عن الأصل الرباعى لمبدأ العلة الكافية»؛ ثم عكف على تفصيل مذهبه فى عمله الرائع «العالم إرادة وتخيل» الذى ضمنه نظرية المعرفة ونظرية العالم. ثم أكمل عمله بمجلد ثان ضمنه مباحثه فى الفن وفى الأخلاق، وأتم به مذهبه بأصوله وفروعه.. وأن كانت كتاباته التالية تتضمن تفصيلات فلسفته وآرائه.

وامتاز شوبنهاور بحرية الفكر والتحرر فى القول، إذ كان يطلق لكلماته العنان، فينقل إلى الناس ما يطرأ على ذهنه من أفكار دونما حياء أو تردد. كذلك امتاز بأنه لم يهتم بما جرت عادة الفلاسفة أن يهتموا به وأقصد بذلك إيراد البراهين والأدلة على ما يذكرون من آراء؛ بل كان يبدى أحياناً - الملاحظات ثم يواصل كلامه، وكأنه لم يذكر عنها شيئاً البتة.

وعرضته هذه الظاهرة للخطأ، وأخرجته عما يتميز به الفيلسوف المنهجى المتزن إلى مجرد رسام يعتمد على الخيال فحسب. وكأنى به يتصور العالم فى مخيلته بصورة خاصة، ثم يلقي بحكمه على



العالم من واقع هذه الصورة الخيالية التى رسمها له .. وقد تكون هذه الصورة بعيدة كل البعد عن الواقع أو تكون ممثلة له حقاً!

والنيرفانا هى المثل الأعلى للرجل فاطر الهممة .. رجل يبدأ حياته برغبة فى تملك الكثير ويكرس كل قواه لتحقيق رغبته وإرضاء عاطفته ولكنه يفقد ما يريد، ومن ثم يقضى حياته فى ضجر وملل دون أن يشعر بأدنى عاطفة.

ولو أصبح الفكر خادماً للإرادة، لكان من المحتمل أن تكون تلك الثمرة الفكرية - التى نعرفها على أنها فلسفة شوبنهاور - تغطية ودفاعاً عن إرادة مريضة عليلية. ولا شك فى أن خبراته السابقة بالنساء وبالرجال قد أدت به إلى أن أصبح غاية فى الشك والحساسية بدرجة شاذة - كما حدث لستاندال وفلوبير ونيتشه. لقد أصبح شوبنهاور متشككاً ومعتزلاً، حتى أنه كتب أن: «الصديق عندما يكون محتاجاً لا يكون الصديق الحق بل مجرد إنسان يطلب قرضاً» ويقول: «لا تخبر صديقاً بشيء ينبغى أن تخفيه عن عدوك». وهكذا نجده ينصح بحياة العزلة المملة الساكنة؛ إذ يخاف المجتمع بل يمكننا أن نقول إنه انعدم لديه كل إحساس بالقيم الاجتماعية أو متعتها. ولكن السعادة تموت عندما لا يشترك فيها الآخرون.

وتتضمن العناصر المؤدية إلى التشاؤم .. الإعجاب بالذات والغرور؛ فالعالم لا نراه كافياً لنا، ونحن نوجه نحوه أنوفنا الفلسفية. ولكن ذلك ليس فى الواقع إلا تجاهلاً لتعاليم اسبينوزا من أن اصطلاحاتنا الخاصة بالرقابة الخلقية والاستحسان هى مجرد أحكام إنسانية غير مترابطة غالباً حينما نريد تطبيقها على النظام الكونى كله.



ولربما كان اشمئزازنا الشديد من الوجود مجرد غطاء لاشمئزازنا الحقيقي من أنفسنا. فإننا غالبًا ما نفرط في تصريف شؤون حياتنا فننحى باللائمة على «المجتمع» أو «الدنيا» مما ليس له لسان يدافع به عن نفسه. ولا شك أن الرجل الناضج يقبل القيود الطبيعية للحياة، ولا يتوقع أن الزهر دائمًا في جانبه إذا ما أراد أن يلعب به لعبة الحياة. كذلك يجب أن يدرك قول كارليل من إنه لا معنى لأن نغيب الشمس لكونها لا تشعل لنا السيجارة، ولو أننا على جانب من المهارة لربما أمكننا أن نجعل الشمس تفعل ذلك، بل لاحلنا كل هذا النظام الكونى حتى يصبح مكانًا ملائمًا وكافيًا. نعم، يمكننا ذلك فعلاً لو أننا أشعنا من ذات نفوسنا بعض الأشعة التى تساعد على ذلك. فليس العالم فى الحقيقة - معنا - ولا ضدنا، بل هو مادة خام فى أيدينا، يمكننا أن نشكلها بحيث تصبح جنة تجمعنا أو جحيمًا تصطلى فيه نفوس الشر - كل ذلك راجع لإرادتنا وتصرفاتنا.

كذلك يرجع بعض التشاؤم فى شوبنهاور ومعاصريه إلى آمالهم ومعتقداتهم الرومانتيكية. فلقد أصبح الشاب منهم يتوقع أن يقدم له العالم كل شىء، وسرعان ما يولد التفاؤل.. التشاؤم الذى نراه. فالتشاؤم هو الصباح الذى يعقب التفاؤل. وفى فلسفة شوبنهاور ومعاصريه نحس فى كلماتهم كما لو إنهم كانوا يريدون من سنة ١٨١٨ أن تدفع ثمن ١٧٨٩؛ فقد أدى تحرير الرومانتيكية للشعور والغريزة والإرادة، واحتقارها للعقل والضبط والربط.. أدى كل هذا إلى العقاب الطبيعى الواجب؛ فإن «العالم» كما قال هوارس والبول «ملهاة لأولئك الذين يفكرون، ومأساة لأولئك الذين يشعرون». وهكذا كانت الحركة الرومانتيكية العاطفية غنية بالأحزان والتأوهات



بقدر لم يوجد فى أية حركة أخرى. فعندما يتبين الرومانتيكى أن مثله الأعلى للسعادة قد تحول فعلاً إلى ما يجلب عليه الشقاء. فإنه لا يلوم مثله الأعلى بل يدرك ببساطة أن العالم غير جدير بكائن مثله منظم كل التنظيم... وكيف يمكن للدنيا ذات النزوات أن ترضى نفساً ذات نزوات؟

ولقد كان ارتفاع نابليون إلى الإمبراطورية، وإنكار روسو - ونقد كانت - للفكر، ومزاجه العاطفى الخاص وتجاربه.. قد تألفت كلها فى أن توحى لشوبنهاور أولية الإرادة وحميتها. وربما ساعدت معركة واترلو وجزيرة سانت هيلانه أيضاً فى تنمية ما ورثه التاريخ، التى قادت القارات فى شدة؛ ومع ذلك، كان مصيرها محتوماً كمصير تلك الحشرة التى يتطلب يوم مولدها موتاً لا محيد عنه.

ولم يخطر شوبنهاور قط أن الأفضل للمرء أن يكافح وأن يخسر من أن لا يكافح قط؛ ولم يشعر - كما شعر هيجل الرجل القوى بالمجد والرغبة فى الصراع؛ بل أخذ يرنو إلى السلام وهو يعيش فى وسط الحرب. كان كل ما يراه صراعاً، ولم يستطع أن يرى ما وراء الصراع من: المعاونة الودية للجيران، وابتهاج الأطفال والشباب، والرقصات الحية التى ترقصها الفتيات المرحات، والتضحية التى يبذلها الآباء والمحبون طواعية، وخصوبة التربة، ومولد الربيع.

وكانت أمه تنبهه إلى ذلك كثيراً بل لقد بعثت إليه وهو فى ويمبلدون برسالة تقول فيها «يجب أن تقترب قليلاً من الناس، عما هى عليه طريقتك الآن، أما أن تبقى شهرين فى غرفة دون أن ترى الناس، فليس هذا يا بنى بالأمر المستحب، بل إنه ليؤسفنى تماماً.. إذ ينبغى للمرء ألا يعتزل الناس».



وبعد عشرة أعوام راحت الأم تردد نفس المعنى، إذ قالت له «ألا يزال يغلب عليك كدر المزاج؟! أم إنك صرت راضيًا عن ذلك العالم الأحق، كما لو لم يكن هناك ما هو أفضل منه؟!».

ولكن النصائح ذهبت أدراج الرياح، وظل شوبنهاور على عادته، بل وجدناه هو نفسه ينصحها - بعد وفاة والده وحضوره إلى فايما - بالاعتصار واعتزال الناس، بحجة أن في ذلك توفير للمال.

وكانت هذه النصائح التي أبداها الابن من الأسباب التي أدت إلى نفور الأم منه، إذ كانت - كما مر بنا - قد وطنت منها النفس على أن تكون سيدة مجتمع ترنو إليها الأنظار وتجتمع في بيتها الصفوة المختارة من أهل الفكر والأدب. ولما تناقل الناس الإشاعات عن مسلك أمه، أصر على ضرورة اعتزالها الناس؛ فدب بينهما الشجار والشقاق. وما هي إلا فترة قصيرة حتى حرم كل منهما على نفسه مكالمة الآخر، وغدا الاتصال بينهما - كلما دعت الضرورة - عن طريق - الكتابة فحسب.

وحاول شوبنهاور التقرب من أسرته عندما كان في فرانكفورت في سنة ١٨٣١، إلا أن محاولته باءت بالفشل. وانتهت بأنه هجر أمه هجرًا كاملاً، ولم يرها طوال الأربعة وعشرين سنة الأخيرة من حياتها. وقد تلقف مؤرخو حياة شوبنهاور أخبار هذه الفرقة، وراحوا يعزون إليها نقمة شوبنهاور على المرأة.

ولكن البعض أضاف إلى أسباب نقمة شوبنهاور على المرأة، شيئاً جديداً هو إنه فشل مرتين في الحب. فما قصة ذلك الحب؟!!



لقد وقع شوبنهاور فى الحب مرتين أولاًهما حينما تعرف على كارولين ياچمن - صديقة الدوق كارل أوجوست دوق فايمار. وبلغ هذا الحب مبلغاً جعله يفكر فى الزواج بها، وكان يتساءل «لم لا آخذ هذه المرأة إلى منزلى، حتى لو كانت تكسر الأحجار فى الطريق!».

وكانت المرأة الثانية التى طرقت فيها المرأة باب قلبه واستجاب لندائها فى سنة ١٨١٨، وهو بالبندقية فى إيطاليا؛ فقد استهوته فتاة إيطالية تدعى تريزا، وبادلته الحب العنيف الذى وصل حد التفكير فى الزواج بها - رغم إنه كان يرى أن الزواج نقمة على العبقرية. ولكنه أفاق فى الوقت المناسب، وآثر البقاء أعزب.

واستمر سيل لعناته ينهال على المرأة، حتى إذا ما بلغ سن الكهولة ألفينا قلبه ينبض - وقد نيف على السبعين من عمره - للفنانة اليزابيث نيه التى كانت تعمل له تمثالاً نصفياً؛ واستطاعت أن تأسره بجمالها وسحرها، وربما جعلته يشعر بالندم على ما صبه من قبل على المرأة من لعنات وما وصفها به من صفات حقيرة .. ولكنه على أية حال لم يكتب شيئاً ولم يؤثر عنه ما يدل على إنه غير من آرائه تجاه المرأة.

وما من شك فى إنه كان فى أعماق شقاء شوبنهاور رفضه للحياة الطبيعية - رفضه للنساء والزواج والأبناء.

أراؤه عن المرأة

لقد كان يرى فى الأبوة أعظم الشرور، وهى التى يجد فيها الرجل السليم رضى كل الرضى فى الحياة.



وهو يرى أن اختلاس الحب راجع إلى الخزى من استمرار النوع - فهل هناك ما يفوق ذلك مجافاة للعقل؟

وهو لا يرى فى الحب إلا تضحية الفرد فى سبيل الجنس، ويتجاهل المباهج التى تسد بها الغريزة ثمن ما يدل من تضحية - مباهج بلغت من العظمة حدًا أوحى معه بمعظم الشعر فى العالم. ولا يعرف شوبنهاور فى المرأة إلا أنها ناشزًا وإلا أنها مخطئة، ويتخيل إنه ليست هناك طرز أو نماذج أخرى.

ويرى أن الرجل الذى يحمل نفسه مسئولية إعالة زوجة إنما يكون أحمق، ولكن من الواضح أن هؤلاء الرجال لن يكونوا أكثر شقاء من صاحبنا رسول الشقاء الفريد. كذلك لن ننسى ما قاله بلزاك من «إن إعالة الرذيلة يتكلف أكثر من إعالة الأسرة».

وهو يسخر من جمال المرأة - كما لو كنا نستطيع أن نغفل أنواعًا من الجمال، وإننا يجب ألا نرعى إلا لون الحياة وشذاها. أية كراهية للنساء قد ولدها حادث سيئ ما فى هذه النفس التعسة؟

وانتقل أثر هذه الحملة إلى المفكر الأسباني جورج سانتيانا الذى أيد شوبنهاور فى نظريته إلى الحب على أنه خداع الجنس للفرد. فقال أن «تسعة أعشار الدافع إلى الحب تكمن فى المحب ذاته».

وقال سانتيانا بأن الحب يذيب نفس المرء ويجرفها فى تيار الجنس، ولكن سانتيانا أكد أن الأسرة هى السبيل إلى دوام الإنسانية. وهو بذلك يذكرنا بكلمات لابلاش التى قالها على فراش الموت: «ليس ثمّة حقيقة سوى الحب؛ فليكن فى الحب ما فيه من خيالات،



ولكنه ينتهى عادة إلى إيجاد صلة من القربى بين الوالد والولد، وهى صلة ترضى الغرائز البشرية بشكل أكبر مما يرضيها ما فى حياة العزوبة من أمن وهدوء؛ فالأبناء هم خلودنا. وليس أَرْضى لنفوسنا من أن نرى «متن» الحياة الخالد قد ظهر فى «نسخة» أخرى أفضل من الأولى».

الحياة سلسلة من الرغبات

قال شوبنهاور إن الحياة سلسلة من الرغبات.

وماذا يضير فى ألا تؤدى الرغبة - بعد إشباعها - إلا إلى رغبة أخرى فحسب؟ ولربما كان خيرًا لنا ألا نقنع أبدًا، فالسعادة - كما تقول حكمة قديمة - تكون فى الأعمال الفذة لا فى التملك أو الإشباع. والرجل الصحيح الجسم لا ينشد كثيرًا من السعادة يزيد عما يتيح له فرصة ممارسة قدراته؛ وإذا كان لابد له من دفع ثمن الألم لهذه الحرية وهذه القوة، فإنه يدفعه برضى، إذ ليس الثمن غاليًا جدًّا. ونحن فى حاجة إلى المقاومة لترفعنا كما ترفع الطائر أو الطائرة؛ ونحن فى حاجة إلى العوائق التى تدعونا إلى مضاعفة قوتنا وتستحث نمونا - فالحياة بلا مأساة غير جديرة بالإنسان.

الأحزان ناجمة عن المعرفة

وقال شوبنهاور إن زيادة المعرفة تتبعها زيادة الأحزان.

وصحيح أن «ذلك الذى يزيد من معارفه يزيد من أحزانه» وإن الكائنات التى تفوق غيرها تنظيمًا هى التى تفوق غيرها عناءً ونصبًا. نعم، ولكن صحيح أيضًا أن نمو المعرفة يزيد البهجة كما يزيد الحزن،



وأن النفس الراقية تحتفظ بأرق المباهج كما تحتفظ بأشد الآلام وقعا. ولقد فضل فولتير - وهو على حق - حكمة «شقاء» البراهمة على جهل المرأة الفلاحة التى تشعر بالنعيم.

ونحن نريد أن نمارس الحياة بشدة وبعمق، حتى ولو دفعنا الثمن من الآلام. نريد أن نتوغل إلى أعماق الأسرار، حتى ولو دفعنا ثمن ذلك من قضائنا على الأساطير والخيالات. فإن فرجيل - الذى تذوق كل المتع وعرف كل الترف الذى تكلفه الرعاية الإمبراطورية - «تعب» أخيراً «من كل شىء إلا من مباهج الفهم».

وعندما تتبدل الحواس وتعجز عن الإشباع، فيكون بلوغ الشىء ذا قيمة مهما تجشمت النفس من الصعاب فى سبيل ذلك؛ ومن ذلك زمالة الفنانين والشعراء والفلاسفة ممن لا يمكن أن يفهمهم إلا العقل الناضج والحكمة متعة فى حلاوتها مرارة، ويزيد من هذه المرارة ذلك النشاط الذى يتداخل فى توافقها.

اللذة سلبية

ويقول شوبنهاور إن اللذة سلبية. وهذا يجعلنا نتساءل:

هل اللذة سلبية؟ أن النفس الجريحة جرحاً مؤلماً هى التى تنطوى على ذاتها وتمتنع عن الاتصال بالعالم، وهى التى تستطيع وحدها أن تنطق مثل هذا الكفر بالحياة. وليست اللذة سوى عملية توافقية تقوم بها غرائزنا. فكيف يمكن أن تكون اللذة سلبية إلا إذا كانت الغريزة تعتمد فى أثناء عملها إلى التقهقر بدلاً من التقدم؟ ولا شك أن الهرب والراحة والخضوع والأمن والعزلة والهدوء من اللذات السلبية، لأن



الغرائز التى تدفعنا إليها هى فى جوهرها سلبية فى أشكال الهرب والخوف. ولكن هل نقول هذا عن اللذة التى تستمد من الغرائز الإيجابية فى أثناء سيطرتها: غريزة التملك والاستحواذ، وغريزة المشاكسة والسيطرة، وغريزة العمل واللعب، وغريزة الاجتماع والحب؟ هل لذة الضحك سلبية؟ وهل من السلبية أيضًا مرح الطفل، أو تغاريد الطير، وهو يشدو لأليفه، أو صياح الديك، أو متعة الخلق فى الفن؟ أن الحياة فى ذاتها قوة إيجابية، وكل وظيفة طبيعية من وظائفها فيها شىء من اللذة.

الموت رهيب

وهناك حقيقة لا شك فيها، وهى أن الموت رهيب. ولكن أغلب ما فيه من رهبة يختفى إذا ما عاش الإنسان عيشة طبيعية؛ إذ لا بد أن يحيا المرء حياة طيبة ليموت ميتة حسنة.

ولكن هل يبهجننا انعدام الموت؟ طبعًا لا، بل من ذا الذى يحسد اها سورس الذى عوقب أشد عقاب بأن بقى حيًا حياة دائمة لا يستطيع إنسان أن يحتملها؟

ولماذا يرى شوبنهاور الموت رهيبًا ما دام لا يرى الحياة حلوة؟ ولن نكرر ما قاله نابليون من أن كل الذين يخافون الموت ليسوا فى الحقيقة إلا ملحدين فى أعماقهم. ولكننا نقول بكل تأكيد أن الإنسان الذى يعيش زيادة عن سبعين سنة يكون قد جاوز فترة التشاؤم.

ويقول جيته إنه لا يوجد إنسان متشاؤم بعد سن الثلاثين؛ فالتشاؤم قبل سن العشرين ترف يجيء نتيجة الشعور بالذات والإحساس



بأهمية الشباب.. الشباب الذى يخرج بعيداً عن صدر أسرته الدافئ إلى الجو البارد: جو التنافس الفردى والجشع، ثم يحن إلى صدر أمه.. الشباب الذى يلقي بنفسه - فى جنون - على طواحين الهواء وشرور العالم، ويفقد مع كل سنة تمر من حياته أحلام المدن الفاضلة والمثل العليا. وينصرف الشباب قبل العشرين إلى متعة الجسد، وبعد الثلاثين إلى متعة العقل؛ وقبل العشرين تكون متعة الحماية والأمان، وبعد الثلاثين متعة الأبوة والبيت.

مسائل أخرى

كيف يمكن أن يتحاشى التشاؤم رجل عاش طول حياته فى فندق؟
وهناك مسائل أخرى أكثر فنية وأقل حيوية، فى هذه الفلسفة الرائعة المثيرة.

- كيف يمكن أن يقع انتحار فى عالم تعد القوة الحقيقية الوحيدة فيه هى إرادة الحياة.

- كيف يمكن للفكر الذى هو وليد الإرادة وأسيرها أن يستقل عن الإرادة ويحقق أهدافه؟

- هل توحيد العبقرية فى المعرفة المنفصلة عن الإرادة، أم إنها تشتمل على قوة إرادة هائلة كقوة دافعة لها، أو حتى سبيكة كبيرة من الطموح الشخصى والغرور؟

- هل الجنون مرتبط بالعبقرية بصفة عامة، أم مرتبط فحسب بالطراز «الرومانتيكى» من العبقرية «مثل بايرون وشيلى وبو وهائنه وسوينبرن وشتريندبرج ودوستوفسكى.. إلخ» وأليس الطراز



«الكلاسيكى والأكثر عمقاً من العبقريّة سليماً بصورة تفوق العادة
«مثل سقراط وأفلاطون وسينوزا وبيكون ونيوتن وفولتير وجيته
وداروين وهويتمان.. إلخ؟».

- ماذا لو لم يكن العمل الصحيح للفكر والفلسفة هو إنكار الإرادة
بل كان تنسيق الرغبات فى إرادة متحدة متوافقة؟

- ماذا لو كانت «الإرادة» نفسها - إلا إذا جاءت كثرة موحدة لمثل
هذا التنسيق - تجريداً أسطورياً خيالياً «كقوة»؟

أوجه الجمال فى آراء شوبنهاور

وبالرغم من ذلك، ففى هذه الفلسفة صدق صريح تبدو إلى جانبه
أغلب المذاهب التفاؤلية مجرد خداع ونفاق، ومن الخير أن نقول مع
سينوزا إن الطيب والخبيث اصطلاحان موضوعيان، من أحكام البشر
التي لا مبرر لها. ومن ثم، فنحن مضطرون إلى أن نحكم على هذا العالم
لا من وجهة نظر «محايدة» بل من وجهة النظر الواقعية للبشر فى عنائه
وحاجاته. وكان جميلاً أن يكره شوبنهاور الفلسفة على مواجهة حقيقة
الشر المجردة وأن يوجه أنف الفكر إلى أعماق البشر فى التخفيف عما
بهم. وكان أكثر مشقة على الفلسفة منذ عصر شوبنهاور أن تعيش فى
جو الميتافيزيقا غير المنطقية وغير الحقيقة، إذ بدأ المفكرون يتبنون
أن الفكر إذا لم تصحبه الحركة فيكون أشبه بالمرض.

وعلى كل حال، فقد فتح شوبنهاور أعين علماء النفس على أعماق
الغريزة وقوتها الدائمة. حتى أنه إذا كان المذهب الفكرى الذى يصور



الإنسان على أنه قبل كل شيء حيوان مفكر، يتخير وسائله - عن وعى التى تصل به إلى الأهداف التى حددها من قبل - إذا كان هذا المذهب قد أصابه المرض مع روسو، فقد لازم الفراش مع كانت، ومات مع شوبنهاور. ولقد وجدت الفلسفة - بعد قرنين من التحليل الداخلى الرغبة وراء الفكر، والغريزة وراء العقل - تمامًا كما حدث مع المادية؛ فبعد أن سيطرت قرناً كاملاً؛ وجدت الطبيعة الطاقة وراء المادة. ومن ثم، فنحن مدينون لشوبنهاور بأنه كشف لنا الستار عن خفايا قلوبنا، وأرانا أن رغباتنا هى محور فلسفاتنا، وأوضح الطريق لفهم الفكر على أنه لم يعد مجرد جمع أحداث غير شخصية - بل إنه أداة طيعة للعمل والرغبة.

شوبنهاور والفن

وأخيراً بالرغم من كل هذه المغالاة، فقد علمنا شوبنهاور مرة أخرى أهمية العبقرية وقيمة الفن، إذ رأى أن الخير المطلق هو الجمال، وأن المتعة الكبرى تكون فى خلق الجمال أو العناية به.

وتعد موسيقى ريشارد فاغنر تحقيقاً لنظرية شوبنهاور فى الفن، التى تقوم على أن الفن عامة - والموسيقى خاصة - هى الوسيلة الوحيدة للخلاص فى الحياة ومن الحياة. فالموسيقى تعبير دقيق لإرادة الحياة التى هى الوجود ذاته. هى فى هذا التعبير لا تصور ناحية معينة من الحياة، بل تعبر عن إرادة الحياة فى جوهرها الكلى؛ فإذا كانت تعبر عن الألم أو السرور فإنما تعبر عن الواحد منهما فى جوهره وطبيعته الأصلية. وكل من يستطيع إلى روائع موسيقى فاغنر وطبيعته الأصلية. وكل من يستمع إلى روائع موسيقى فاغنر يحس



بالنشوة والسلوى، بل يجد فيها الخلاص الذى كان شوبنهاور ينشده ويدعو إلى تحقيقه عن طريق الفن والموسيقى.

شوبنهاور ونيتشه

ولم يقف تأثير شوبنهاور عند فاجنر، بل إننا نجد سلسلة من رجال الفكر يسرون من ورائه على الطريق. فقد أحس نيتشه مثلاً بأنه واقع تحت تأثير شوبنهاور لفترة طويلة من الزمن. فمند وقع بصره على كتاب «العالم إرادة وتخيل» أعجب نيتشه به، واعتنق مذهب شوبنهاور بل اعتبره أباه الفكرى، وعده أحسن من تغنى بالتشاؤم، وأبرع من وصف آلام الحياة، وأعمق من نفذ إلى جوهرها، ووضع يده على مفتاحها: إلا وهو «إرادة الحياة» وصار نيتشه أشبه «بالنائم» إذ سرى تشاؤم شوبنهاور فى أوصاله سريان المخدر، وأشاع فى أعصابه الارتخاء، كذلك فعلت موسيقى فاجنر فيه فعلها، فكانت تخفف من آلامه.

ولكن ما إن دب المرض فى نيتشه حتى ثار على شوبنهاور وعلى تشاؤمه، واعتنق مبدأ «الحياة»؛ فكان المرض شاحداً لإرادته موحياً إليه بالشجاعة، دافعاً به إلى توكيد حياته بالرغم مما كان ينتابه طوال حياته من آلام فى الرأس والعينين والمعدة «وكان يتقبل الآلام كامتحان أو رياضة روحية، وينكر على المرض التشاؤم. وتطورت فلسفته التى هى صورة نفسه القلقة وثقافته الرومانتيكية وتجربته المؤلمة، وصارت تقوم على تعليم الإنسان كيف يكتشف فى نفسه إرادة القوة. وهذا ما دفعه إلى نقد شوبنهاور نقداً لاذعاً، وإلى فصم كل صلة كانت له بفاجنر حين تبين أنه مختلف معهما فى معنى الحياة والغاية منها.



شوبنهاور وبرجسون

وإذا ما سرنا مع الزمان حتى ير جسون وجدناه ينهج نهج شوبنهاور الذى كان أول من فطن إلى أن «الحياة» أساس الوجود. وتناول برجسون من بعده هذه الفكرة بالبحث والاستقصاء حتى جذب أنظار العالم كله إليها - على الرغم من طغيان روح اللاإرادية والشك طغياناً هائلاً على هذه الحياة.

شوبنهاور والفكر الحديث

ولقد تأثر فى القرن الماضى بشوبنهاور - فضلاً عما ذكرنا - كثير من المفكرين الآخرين أمثال هيل وتولستوى وتوماس مان. وفى هذا القرن تأثر به البعض أمثال ويليام جيمس وفرويد.

ولن يقف تأثير شوبنهاور عند حد، بل لسوف تبقى فلسفته ذات أثر كبير، وسيظل هو المفكر المطلوب فى ساعات الشدة، والمفكر الذى يلجأ إليه الشباب عندما ينهار بتحطم أوهامه؛ والمفكر الذى يقف على أعتابه المسئولون الذين لا يستطيعون أن يوقفوا تدهورهم وتحليقهم مع الخيالات.

ولسوف يظل شوبنهاور فيلسوف كل أولئك الذين يعيشون عيشاً صارماً جاداً خالياً من الأحلام والآمال.

ولكن...

قبل أن أختتم هذا الحديث، أود أن أنقل هنا شيئاً طالعه أخيراً فى عجب.. ذلك إنه عندما طلب إلى ويليام جيمس فى يوم ٢١ سبتمبر ١٩٦٠ أن يرأس اللجنة التى تقوم بإعداد تمثال شوبنهاور

فى فرانكفورت، ورفض ويليم جيمس ذلك رغم أنه من المفكرين
الأمريكيين الذين تأثروا بشوبنهاور.

وقال ويليم جيمس:

«إننى لا أستطيع أن أشارك فى تمجيد رجل بصق على حياتى
وحياة أولئك الذين أمجدهم بقلبى. إن صيحة التشاؤم كعواء الذئب؛
ولا يتفق وعلم الأخلاق فى شىء تمجيد رجل تقضى تعاليمه بالقضاء
على كل عاطفة».

ولكن كلمات ويليام جيمس لا تغمط شوبنهاور وفلسفته وفضائل
حديثه.. لا تغمطها حقها من التقدير؛ ولسوف نقيس شوبنهاور دائماً
بكانت، وتتفق معه إلى حد كبير فى أنه مكمل كانت فى فلسفته.

وليس من تعليل لما قاله ويليم جيمس إلا إنه يختلف مع شوبنهاور
فى مسألة جانبية: إلا وهى نظرتة إلى اليهود، فقد كان شوبنهاور إذا
لم يعجبه حديثاً وصفه بأنه سخيى لا معنى له، ككلام اليهود؛ بل
أثر عنه تعليق على مطاعمهم وهو «أن أسعار أسهم اليهود القدماء فى
انخفاض»، وأن النيرفانا سوف تحل محل وطن يهوه!

وإنى لأرى فى ذلك سبباً كافياً لتكر ويليام جيمس لأستاذه
شوبنهاور!

ولكنى لا أقبل قط التقليل من أهمية فلسفة شوبنهاور، بل إنى
لأشارك اليوم مع شوبنهاور عندما شارك مع كل من جيته وكارليل
فى الاحتجاج على محاولات هيجل وماركس وباكل فى الإقلال من
شأن العبقرية كعامل أساسى فى التاريخ البشرى، بل راح يدعو مرة



أخرى إلى تكريم عبادة الإبطال، في عصر بدا فيه أن جميع العظماء قد ماتوا. وأقول لويليم جيمس وأمثاله إنه رغم كل الأخطاء التي يمكن أن تؤخذ على شوبنهاور، فقد نجح في إضافة اسم جديد إلى قائمة الخالدين، ألا وهو:

آرتور شوبنهاور



هذا الكاتب

- الدكتور أحمد معوض من أبناء الإقليم الجنوبي للجمهورية العربية المتحدة.

- وهو عضو نقابتى الصحفيين بالقاهرة وفيينا.

- استهل حياته العملية والعالم يشهد ضياع الأرض المقدسة من أيدي العرب والتهام الصهيونية لجزء غال منها، فقام بجولات واسعة في أوروبا وآسيا وأفريقيا للتعريف بالعالم العربى والإسلامى وقضاياها.

- أكمل دراساته العليا فى فرنسا والنمسا وألمانيا حيث حصل على دكتوراه الفلسفة.

- نشرت له الصحافة العربية والأجنبية مجموعة ضخمة من كتاباته وجولاته، وأخرجت له المطابع كثيرًا من الكتب والدراسات والأعمال التى وضعها باللغات العربية والألمانية والإنجليزية والفرنسية.

- جعل كل كتاباته، فى الفترة التى قضاها فى أوروبا، قاصرة على شرح حقيقة الأوضاع فى العالم العربى وبلدان الشرق، والدفاع عن قضايانا الحققة، ونقل صورة صادقة منها للعالم غير الناطق بالضاد. وواصل هذه الرسالة بعد عودته إلى الوطن.

- أرتأى أن العالم العربى فى نهضته الجديدة صار فى أمس الحاجة إلى الاطلاع على روائع الفكر العالمى، فعمل على أن ينقل صورًا منها إلى العالم العربى.



كتب الدكتور أحمد معوض

عن المشاكل العالمية

- لعب بالنار دراسة لمشكلة برلين (الطبعة الثانية)
- قضية برلين في وثائق (تحت الطبع)
- صراع حول ألمانيا (تحت الطبع)
- الحرية وإعادة توحيد ألمانيا (تحت الطبع)
- تركيا بين الشرق والغرب (الطبعة الأولى) نفذ
- عن القضية الفلسطينية - باللغة العربية
- فلسطين تحتضر (الطبعة الأولى) نفذ
- دولة إسرائيل (الطبعة الأولى) نفذ
- اللاجئون العرب (الطبعة الأولى) نفذ
- هل نترك إسرائيل تقوم وفلسطين تحتضر؟! (الطبعة الثانية) نفذ
- صرخة إلى السماء (الطبعة الثالثة) نفذ
- لن نكون لاجئين (الطبعة الأولى)
- عائدون (تحت الطبع)
- لمن الأمر؟! حقيقة التيارات السياسية في إسرائيل (تحت الطبع)



باللغة الألمانية

- حرب أم سلام فى الأرض المقدسة

Krieg oder Frieden im heiligen Land

Frieden im Orient

- السلام فى الشرق

Sicher ist unsere Heimkehr

- عائدون

باللغة الإنجليزية

- صراع فى الأرض المقدسة (الطبعة الأولى)

Duel in the Holy Land

- إذا نسيته يا فلسطين (تحت الطبع)

if I Forget thee, O Palestine

باللغة الفرنسية

Un Cri vers le Ciel (تحت الطبع)

جولات ورحلات

- رحلات فى الشرق العربى - بين الشرق والغرب

- رحلة إلى سوريا ولبنان - إيران

- فى أرض الحرمين - الأرض الطاهرة (باكستان)

- لبنان - أفغانستان

- من النيل إلى الدانوب الأزرق (نفذ)

- رقص بين الأطلال (تحت الطبع)



- الشرق
- هذا هو الشرق
- سوريا تنهض
- عظماء الشرق
- نحو الوحدة العربية
- مشاكل العالم العربي (كتاب مسابقة جامعة الدول العربية)
- ليبيا الجديدة
- العراق الحديث
- ثورة الشعب
- تاريخ اللغات السامية

أضواء على..

- شوبنهار
- (الطبعة الأولى)
- نيتشه
- عمر الخيام
- جيته
- بوشكين
- شيلر
- تولستوى
- هاينه
- تشيكوف

من مؤلفات جيته

- آلام فرتر الصغير
- ترجمة أمينة عن الألمانية لقصة فرتر الخالدة

